

كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
سبورتنج - إسكندرية
أسرة القديس ديديموس الضرير للدراسات الكنسية

سر تجسُّد الرب



القديس أمبروسيوس

من كتابات الآباء (١٧)

كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس
سبورتنج – الإسكندرية
أسرة القديس ديديموس الضرير
للدراسات الكنسية

سر تجسُّد الرب

القديس امبروسيوس
أسقف ميلان

ترجمة
ريمون يوسف

من كتابات الآباء (١٧)

الكتـــــاب : سر تجسد الرب

القديس امبروسيوس -- أسقف ميلان

ترجمـــــة : ريمون يوسف

تصـويـــر : مراد مجدى

النـــاشـــر : كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج

الطبعـــــة : الأولى -- يناير ٢٠١١

المطبعـــة : مطبعة الدلتا - delta

www.deltapress.net

٢٤ ش الدلتا سبورتنج - ت: ٠٣/٥٩٠١٩٢٣-٢٠+



قداسة البابا المعظم شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المقدِّمة

لاقى القديس أمبروسيوس تحديًا كبيرًا مـن قِبَـل حـاجبي الإمبراطور الأريوسيين، اللذين اعتراضا على بعض تعبيـرات قالها القديس أمبروسيوس في عظة ألقاها عن التجسُّد، أعلن فيها أن السيد المسيح مساوٍ للآب في الجوهر، وشرح كيف أن رب المجد في تجسُّده أخذ جسدًا حقيقًا مماثل لأجسادنا تمامًا يتكـون من جسد ونفس حيَّة عاقلة. لذلك اعترض هذان الحاجبان على تعاليم القديس وتحدياه لكي يُثبت تعاليمه.

قَبِلَ القديس أمبروسيوس المواجهة رغبةً منه في توضـيح الحقيقه للشعب، وكان من المفترض أن يقابلهما في اليوم التالي. ولكن الحاجبين قررا أن يذهبا في رحلة صـيد أولاً، قبـل أن يتوجها للكنيسة، فلقيا مصرعهما في حادثة.

ظل القديس أمبروسيوس ينتظرهم في الكنيسة، وهو غيـر عالمٍ بما حدث، وفي غضون ذلك ظن القديس أنهما يخططـان للمجيء المفاجئ والقيام بخدعة ما حتى يربكانه. ولهـذا نجـد القديس أمبروسيوس في مُستهل العظة يقول: "فَكِّروا بأننا سوف نتفرَّق عند مجيئهم المفاجئ".

ولكي لا يترك القديس الجمع المُحتشد مُنتظرًا، شَرَعَ في الوعظ دون الدخول في الموضوع الرئيسي أملاً في وصولهما. فنجده يتحدَّث عن تقدمة قايين وهابيل، وقد كان هذا الجزء من الكتاب المقدس هو الذي تمت قراءته في الكنيسة ذلك اليوم، وأخذ القديس يوضح أن الكلمات التي وجَّهها الله لقايين هي كلمات من الملائم توجيهها لكل الهراطقة أيضًا، راجيًا أن يأتي الحاجبان. وعندما لم يأتيا، تطرَّق إلى موضوعه الرئيسي، مفندًا بدعة الأريوسيين الذين أنكروا إلوهيَّة الكلمة، والدوسيتيين (الخياليين) الذين أنكروا حقيقة جسد الرب، وأيضًا أبوليناريوس الذي أنكر كمال بشريَّة ربنا يسوع.

دُوِّنت هذه العظة بواسطة كتبة اختزال أثناء إلقائها ثم نُسِخَت لاحقًا. بعد ذلك، وقد راجعها القديس أمبروسيوس وأسهب فيها. وعندما أُعدَّت للنشر، أضاف مُلحقًا خاصًا يحوي ردًا على سؤال بلاديوس أسقف راتيارا الأريوسي في كيف أن يكون غير المولود "الآب" والمولود "الابن" من طبيعةٍ وجوهرٍ واحدٍ[1].

[1] Boniface Ramsey O.P, *Ambrose*, edited by Carol Harrison University of Durham, USA and Canada by Routledge, 2002, p. 62.

وهكذا، يمكن تقسيم هذا العمل إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

القسم الأول: (فقرة ١-١٣) مقدمة تشمل مناقشة تقدمة قايين وهابيل.

القسم الثاني: (فقرة ١٤-٧٨) ومحور هذه الفصول هو التجسُّد.

القسم الثالث: (فقرة ٧٩-١١٦) ردًا على اعتراضات بلاديوس أسقف راتيارا الأريوسي.

يبدو أن عنوان هذا العمل قد أُخِذَ من التعبير الذي استخدمه القديس أمبروسيوس في الفصل ٧ وهو "**سرُّ تجسُّد الرب**". وأطلق باولينوس، كاتب سيرة القديس أمبروسيوس، على هذه العظة اسم "**تجسُّد ربنا**". ويستخدم لاون الكبير أسقف روما وآخرون العنوان الأول مع إضافة عنوان آخر له وهو "**ضد أتباع أبولليناريوس**".

ومعظم الدارسين يتّفقون على أن القديس قد أعد هذا العمل بعد تاريخ كتابة "في الإيمان" الذي يُشير إليه القديس أمبروسيوس في القطع: ٥٢، ٨١ و١٠٠ من العمل الذي بين أيدينا.

جديرٌ بالذكر أن بعض المخطوطات تضم هذا العمل ليكون الكتاب الرابع من عمل "في الروح القدس"، أو الكتاب التاسع من عمل أكبر يضم ثلاثة أعمال وهي: "في الإيمان"، "في الروح القدس" و"في التجسُّد". وبذلك، يحتمل تأليف هذا العمل سنة ٣٨٢م.

اعتمدتُ في ترجمة هذه العظة على النص الإنجليزي المنشور في:

The Fathers of The Church, Vol. 44, St. Ambrose: *The Theological and Dogmatic works*, Translated by Roy J. Deferrari, PH.D., The Catholic University of America, Washington, D.C., 1963, pp. 217-264.

ومرارًا كثيرة، كنت أرجع إلى النص اللاتيني المنشور في:

Migne-Patrologia Latina, Volumen 16: 817-846C. Operum Sancti Ambrosii Mediolanensis Episcopi:

De Incarnationis Dominicae Sacramento - liber Unus.

سر تجسُدِ الرب
للقديس أمبروسيوس أسقف ميلانو

الفصل الأول

قايين وهابيل[2]

(١) إخوتي، إني أشتاق أن أُسدِّد ديني، ولكن أصحاب الدَين لم يحضرا بعد[3]، لعلَّهم قد اعتقدوا بأننا سوف نرتبك إذا ما جاءوا فجأةً، ولكن الإيمان الحقيقي لا يتزعزع.

(٢) وإلى أن يَحين مجيئهما، فلنهتم بأولئك المزارعين اللذين قُرأت قصتهم منذ قليل[4]. الأول هو قايين الذي قدَّم من أثمار الأرض قرباناً للرب؛ والآخر يُدعى هابيل وقدَّم هو الآخر قرباناً، ولكن من أبكار غنمه لا من الزروع. وأنا لا أجد أمامي مشكلة تخص نوع التقدمة ذاتها (إذا كانت من ثمار الأرض أو من أبكار الغنم)، غير أننا نعرف أن الرب لم ينظر إلى تقدمات

---

[2] العناوين الجانبيَّة من وضع المترجم.

[3] يقصد حاجبي الإمبراطور اللذين طالباه بتفسير تعاليمه.

[4] لقد قُرأت قصة تقدمة قايين وهابيل أثناء القداس الإلهي.

قايين وقال له: "**إن قدَّمت قربانًا ولم تَعرف أن تُقسِّم**[5] **حسنًا، فقد أخطأت**"[6] (تك ٤ : ٧سبعينية).

(٣) أين هي إذن الجريمة؟ أين يَكمُن الخطأ؟ ليس في نوع التقدمات، ولكن في استعداد العقل الذي به قد قُدِّمت القرابين. وأنا أعلم أن هناك بعض الناس تعتقد أن أحدهما فقط هو الذي اختار ما وَجَبَ تقديمه (أبكار الغنم)، على عكس الآخر الذي قَدَّم ما لا يحق تقديمه (ثمر الأرض)؛ ولكن إن اعتقدنا أن الرب يطلب الذبيحة الجسديَّة وليس الروحيَّة فإننا نفتقر إلى فهم معنى الذبيحة الروحيَّة.

لهذا، أضاف الكتاب قائلاً: "**توقَّف**" ليعلمنا أنه كان ملائمًا جدًّا أن يمتنع (قايين) عن تقديم القرابين، بدلاً من أن يُقدِّمها بقلب مملوء غَيْرة يعوزها الإيمان. لأن مَنْ لا يعرف أن **يُقسِّم**،

---

[5] المقصود باقتسام الذبيحة هو أن قايين احتفظ بدون حق بالجزء الأحسن منها وترك للرب الأردأ. وكثيرًا ما استخلص الآباء في كتاباتهم من هذه القسمة المعنى الأخلاقي لها. فالقديس إيريناؤس مثلاً، حين يُعلِّم بخصوص التقدمات، يقول: "إن سبب عدم قبول ذبيحة قايين هو أن قلبه كان منقسمًا بسبب الحسد والشر اللذين أضمرهما نحو أخيه. فهو كان يظن أنه يقدم ذبيحته حسنًا لأنه كان يحكم بحسب الظاهر بينما كان في الحقيقة يُغضب الله لأنه أضمر الخطيئة."

[6] أوردنا الآية بحسب الترجمة السبعينية التي استخدمها القديس أمبروسيوس في كل الآيات.

لا يعرف كيف يَحكُم؛ أما "**الروحي فيحكُم في كل شيء**" (١كو٢: ١٥) وهكذا أحسن إبراهيم تقسيم الذبيحة التي قدَّمها[٧].

(٤) هابيل أيضًا عَرَفَ كيف يُقسِّم، إذ قدَّم قربانًا من أبكار غنمه[٨]، مُعلِّمًا إيانا أن التقدمات الأرضيَّة التي جعلت الخاطئ ينحدر أكثر (قايين) لا يُسرَّ الرب بها، بل أن الرب ينظر إلى تلك التقدمة التي تُشِع بنعمة السر الإلهي. وبهذا التصرف تنبأ هابيل بأننا سوف نُفتَدى من الخطيئة بواسطة آلام الرب الذي كُتِبَ عنه: "**هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم**" (يو١: ٢٩). وعندما قدَّم هابيل من أبكار غنمه، قد أشار إلى المسيح البكر. ولهذا، أوضح هابيل أنَّ التقدمة الحقيقيَّة للرب ربما تكون نحن، الذين يقول لنا النبي: "**قدموا للرب أبناء الكباش**" (مز٢٩: ١س).

(٥) ويمكن أن يقال: "**توقَّف**" إلى كل إنسانٍ شريرٍ. لأني أظن أن هذه الآية قيلت عامة لكل مَنْ هم خارج الكنيسة. فأنا أرى هنا صورة أناس تشملهم هذه الآية المُقدَّسة، وقد رَفَضَ الله تقدماتهم التي قدموها إليه.

---

[٧] انظر تك١٥: ١٠.

[٨] انظر تك٤: ٤.

الفصل الثاني

توقَّف يا هرطوقي

(٦) وهذه الآية "**توقَّف**" موجَّهة أيضًا ضدَّ كل الرجال عديمي الإيمان. وهكذا، إن قدَّم يهودي قربانًا للرب، ولكنه كان يفصل ابن العذراء مريم عن الله الآب، فله يقال: "إن قدَّمت قربانًا ولم تَعرف أن تُقسِّم حسنًا، فقد أخطأت. توقَّف" (تك٤: ٧س).

إفنوميوس

(٧) إذا انزلق أحد أتباع إفنوميوس في وحل خيانته – وهو الذي يدَّعي أن سلسلة أنساب المسيح قد جُمِعَت مِنْ تقاليد الفلسفة- وشرَعَ في تقديم قربانًا للرب فله يقال: "إن قدَّمت قربان ولم تَعرف أن تُقسِّم حسنًا، فقد أخطأت. توقَّف" (تك٤: ٧س)

سابيليوس ومركيون

(٨) وهذه الآية تقال أيضًا إلى أتباع سابليوس الذين يخلطون بين الآب والابن. وأيضًا إلى أتباع ماركيون الذين يعتقدون بأنه يوجد إله للعهد الجديد وآخر للعهد القديم. وأيضًا إلى مانيخايوس وفالنتينوس الذي ظن أن المسيح لم يتَّخذ جسدًا حقيقيًا مثل جسد أي إنسان. ويشارك هذا الهرطوقي أيضًا في فكره المنحرف بولس الساموساتي وباسيليديس.

منكرو الروح القدس

(٩) وأولئك الذين قد أنكروا إلوهيَّة الروح القدس قد أُدينوا هم أيضًا بحسب هذه الآية. لأننا نرى أنه توجد فئتان: فهناك الأريوسيون يهود، وهناك أيضًا اليهود الأريوسيون، الفئة الأولى تفصل الابن عن الآب، والثانية تفصل الروح القدس عن الله الآب والله الابن.

نوفاتوس ودوناتوس

(١٠) وأيضًا، إلى نوفاتوس ودوناتوس ولكل مَنْ حاول أن يُقسِّم جسد الكنيسة الواحد، يقال: "**إن قدَّمت قربانًا ولم تَعرف أن تُقسِّم حسنًا، فقد أخطأت. توقَّف**" (تك٤: ٧س) لأن جسد الكنيسة هو الذبيحة التي تُقدِّمها الكنيسة للرب، والتي يقول عنها بولس: "**فأطلب إليكم أيُّها الإخوة برأفة الله أن تُقدِّموا أجسادكم ذبيحة حيَّة مقدَّسة مرضيَّة عند الله**" (رو١٢: ١). وللأسف قد قسَّم هؤلاء الهراطقة على نحو رديء تلك الذبيحة عن طريق تمزيق أعضاء جسد الكنيسة.

مكر الهراطقة

(١١) وذاك الرأي يضرب بقوة أولئك الذين يفصلون النفس العاقلة عن سر تجسُّد الرب[٩]، رغبة منهم في فصل النفس

[٩] يُشير ق. أمبروسيوس إلى أبوليناريوس، أسقف اللاذقية بسوريا وأتباعه.

الإنسانية عن طبيعة الإنسان[١٠]. ربما أولئك قد قدَّموا ذبيحة تليق بالثالوث، ولكنهم لم يعرفوا أن يُميِّزوا شخص الإنسان عمَّا للطبيعة الإلهيَّة؛[١١] لأن طبيعة الله هي بسيطة، بينما طبيعة الإنسان تتكون من جسد ونفس عاقلة. إذا أُلغيَت إحداهما، فتكون بذلك قد دُمِّرت طبيعة الإنسان بأكملها.

(١٢) هكذا، تُعدُّ هذه الآية حُجة قويَّة ضد كل الهرطقات، التي تحت مُسمَّى الأخويَّة ولكن بطريقة غير أخويَّة، قد أرهقت الكنيسة وعذَّبتها. فهم يرغبون دائمًا في جرحنا بسيوف هرطقاتهم القاتلة تحت الاسم المسيحي وتحت نوعٍ من الإيمان الاسميّ الأخوي. فالخطاة قد يسودون علينا في العالم؛ إذ أنهم قد يتسلَّطون هنا فقط، بينما الأبرار سيحكمون في ملكوت الله.

الانتباه للهراطقة

(١٣) لذلك، فلنستيقظ مِنْ غفلتنا، خشية أن يحاول أي إنسان فصلنا عن المسكن الذي أعدَّه لنا المَلِك الأزلي، أو إبعادنا

---

[١٠] لأنهم عندما يدعون أن السيد المسيح قد أخذ جسدًا بدون نفس عاقلة، فهم بذلك يقرون أن النفس العاقلة ليست جزءًا أساسيًا من الطبيعة البشرية.

[١١] يقصد ق. أمبروسيوس أن البعض قد يكون لديه إيمان سليم بالثالوث، ولكن إذ يخطئون في فهم طبيعة السيد المسيح كإله متجسِّد يكونوا قد سقطوا في هرطقة كبيرة.

عن حضن الكنيـــــــسة أمنا، تلك الكنيسة التي يشير إليها سفر نشيد الأنشاد[١٢] كقائدة لكلمة الله.

لنحترس لئلا نفصل جوهر طبيعـــة الابـــن الوحيـــد غيـــر المنظورة عن حضن الآب وعن رَحِمَه الأبوي. لأن هذا التعليم هو الأساس الذي تقوم عليه حقيقة التجسُّـــد، ولنُقـــر بوضـــوح بحقيقة ولادة السيد المسيح الأزلية، حتى لا يُقال لأحد منا: "**إن قدَّمت قربانًا ولم تَعرف أن تُقسِّم حسنًا، فقد أخطأت. توقَّف**".

أقصد بحديثي هذا، أن كلمات هذه الآية ستنطبق علينـــا، إذا كنا لا نعرف كيف نُميِّز بين خواص الإلوهيَّة الأزليَّة وخواص التجسُّد، وإذا كنا نخلط بين طبيعة الخالق وطبيعة خلائقه؛ وإذا كنا نقول إن **مُنشِئ** الزمن قد صارت له بداية في الزمن. لأنـــه من غير الممكن أن يكون ذاك (ابن الله)، الذي بـــه كـــان كـــل شيء، هو أحد تلك الأشياء المخلوقة.

---

[١٢] انظر نش٣: ٤.

الإنسانية عن طبيعة الإنسان[10]. ربما أولئك قد قدَّموا ذبيحة تليق بالثالوث، ولكنهم لم يعرفوا أن يُميِّزوا شخص الإنسان عمَّا للطبيعة الإلهيَّة؛[11] لأن طبيعة الله هي بسيطة، بينما طبيعة الإنسان تتكون من جسد ونفس عاقلة. إذا أُلغِيَت إحداهما، فتكون بذلك قد دُمِّرت طبيعة الإنسان بأكملها.

(١٢) هكذا، تُعدُّ هذه الآية حُجة قويَّة ضد كل الهرطقات، التي تحت مُسمَّى الأخويَّة ولكن بطريقة غير أخويَّة، قد أرهقت الكنيسة وعذَّبتها. فهم يرغبون دائمًا في جرحنا بسيوف هرطقاتهم القاتلة تحت الاسم المسيحي وتحت نوعٍ من الإيمان الاسمي الأخوي. فالخطاة قد يسودون علينا في العالم؛ إذ أنهم قد يتسلطون هنا فقط، بينما الأبرار سيحكمون في ملكوت الله.

الانتباه للهراطقة

(١٣) لذلك، فلنستيقظ مِنْ غفلتنا، خشية أن يحاول أي إنسان فصلنا عن المسكن الذي أعدَّه لنا المَلِك الأزلي، أو إبعادنا

---

[10] لأنهم عندما يدعون أن السيد المسيح قد أخذ جسدًا بدون نفس عاقلة، فهم بذلك يقرون أن النفس العاقلة ليست جزءًا أساسيًا من الطبيعة البشرية.

[11] يقصد ق. أمبروسيوس أن البعض قد يكون لديه إيمان سليم بالثالوث، ولكن إذ يخطئون في فهم طبيعة السيد المسيح كإله متجسِّد يكونوا قد سقطوا في هرطقة كبيرة.

عن حضن الكنيســـــــة أمنا، تلك الكنيسة التي يشير إليها سفر نشيد الأنشاد[١٢] كقائدة لكلمة الله.

لنحترس لئلا نفصل جوهر طبيعـــة الابـــن الوحيـــد غيـــر المنظورة عن حضن الآب وعن رَحِمَه الأبوي. لأن هذا التعليم هو الأساس الذي تقوم عليه حقيقة التجسُّـــد، ولنُقـــر بوضـــوح بحقيقة ولادة السيد المسيح الأزلية، حتى لا يُقال لأحد منا: "**إن قدَّمت قربانًا ولم تَعرف أن تُقسِّم حسنًا، فقد أخطأت. توقَّف**".

أقصد بحديثي هذا، أن كلمات هذه الآية ستنطبق علينـــا، إذا كنا لا نعرف كيف نُميِّز بين خواص الإلوهيَّة الأزليَّة وخواص التجسُّد، وإذا كنا نخلط بين طبيعة الخالق وطبيعة خلائقه؛ وإذا كنا نقول إن **مُنشِئ** الزمن قد صارت له بداية في الزمن. لأنـــه من غير الممكن أن يكون ذاك (ابن الله)، الذي بـــه كـــان كـــل شيء، هو أحد تلك الأشياء المخلوقة.

---

[١٢] انظر نش٣: ٤.

الفصل الثالث

مساواة الابن للآب في الأزليَّة

(١٤) بالطبع أنا لا أرغب في أن نثق في أفكارنا الخاصة، بل لنقتبس مِنْ الكتب المقدَّسة. فأنا لم أقل من نفسي: "**في البدء كان الكلمة**" (يو ١: ١)، ولكنني أسمعها في الكتب المقدسة؛ وأنا لم أختلق (هذا النص) ولكني أقرأ ما يقرأه الجميع، لكن للأسف لا يفهمه الجميع. وحينما تُقرأ تلك الآية، نسمعها جميعًا، ولكن لا يستوعبها الجميع، إذ "**قلب البعض قد غلُظَ وآذانهم قد ثقلت**" (أع٢٨: ٢٧)، أعني آذان استعدادهم الداخلي. فالجسد لا يخطئ، إذ أنه يؤدي وظائفه ويستقبل باستمرار ما تسمعه الأذن؛ بل أن الذهن هو المُترجِم الذي يعاكس السمع الصالح، وهو الذي يرفض سماع ما قيل وفهم ما قُرأ.

فلماذا تَسد آذانك بشمعٍ ورصاصٍ... ؟ أنت تسمع بلا رغبة وبازدراء، أنت تسمع، لذلك أنت بلا عذر كأنك لم تسمع.

في البدء كان الكلمة

(١٥) بالتالي، حينما نقرأ: "**في البدء كان الكلمة**" فأنت تسمع. وإذا سألتك، مَنْ يقول هذا؟.. فسترد بالتأكيد، إنه يوحنا صياد السمك. ولكنه لا يتكلم بهذا كصيادٍ للسمك، بل كصيادٍ

لعقول البشر. لأنه لم يَعُد بعد يصطاد السمك، بل صار يُحيي البشر[١٣]. تلك الكلمات ليست كلماته، بل كلمات مَنْ وَهَبَه قوة الإحياء... ومَنْ أحياه المسيح، وتعلَّم ما نطق به يوحنا؛ فقد أدرك أن المسيح هو **الكلمة**[١٤].

(١٦) وهكذا، منذ أن عَرَفَ يوحنا، ممتلئًا من الروح القدس، أن بداية **الكلمة** لم تكن زمنيَّة بل فوق الزمن، تَرَكَ العالم. ولمَّا ارتقى في الروح فوق كل بداية، قال: "**في البدء كان الكلمة**" أي لتبقى السموات دونه لأنها لم تكن قد خُلِقَت بعد طالما أنه "**في البدء كان الكلمة**". فبالرغم مِنْ أن السموات لها بداية، إلاَّ أن الله ليس له بداية. والكتب المقدسة تقول: "**في البدء خَلَقَ الله السموات والأرض**"[١٥]. إن الفعل "**خَلَقَ**" شيء والفعل "**كان**" شيء آخر. فما "**خُلِقَ**" له بداية وما "**كان**" ليس له بداية ولكنه كائن مِنْ قبل. فليبقَ الزمن أيضًا دونه، لأن الزمن قد خُلِقَ بعد السموات. فلتبقَ الملائكة ورؤساء الملائكة كذلك دونه. صحيح أننا لم نعرف تحديدًا بداية الملائكة، ولكن هذا يعني أنه كان هناك زمن

---

[١٣] انظر: لو٥: ١٠.

[١٤] تمييزًا للكلمة التي تُشير إلى المسيح عن الكلمة العادية جعلنا الأولى في خط مختلف.

[١٥] انظر تك١: ١.

حينما لم تُخلَق. لأنهم لم "**يكونوا**"[16] بل صارت لهم بداية في وقت معين. إذن، إن لم أستطِع اكتشاف بداية أولئك الذين لهم بالتأكيد بداية، كيف يتسنى لي اكتشاف بداية **الكلمة**.

والكلمة كان عند الله

(١٧) هكذا، أعلن يوحنا الإلوهيّة الأزليّة التي **للكلمة** بشكلٍ واضحٍ. ولئلا يفصل أحد أبديَّة **الكلمة** عن الآب، إذ أننا نؤمن أن ما للآب هو بعينه للابن، أضاف الصياد الصالح قائلاً: "**والكلمة كان عند الله**". ما قاله يوحنا ينبغي أن يُفهَم على النحو التالي: "كان الكلمة مثلما كان الآب، حيث إنه هو والآب معًا، وكان **الكلمة** أيضًا في الآب، وكان دائمًا مع الآب." وبالتأكيد، حينما نقرأ عن الآب أنه "**كان**"، هكذا نقرأ أيضًا عن الابن أنه "**كان**".

(١٨) فلماذا تدّعي فهمك للمعنى الكامن وراء (هذه الأقوال)، بينما أنت لم تفهم من الأساس القراءة؟ فمن طبيعة **الكلمة** أن يكون مع الآب؛ ومِنْ طبيعة الآب أن يكون مع **الكلمة**، وكلمات يوحنا التي نقرأها تقول: "**والكلمة كان عن الله**". لذلك، إذا كان هناك - بحسب رأيك الخاص - زمنًا كان

[16] يقصد ق. أمبروسيوس أنه حينما نتحدث عن جميع المخلوقات نستخدم الفعل "خُلقوا" كما قيل: "في البدء خلق الله السموات والأرض" وليس "في البدء كانت السموات والأرض" مثلما قيل: "في البدء كان الكلمة".

الكلمة فيه غير موجود، فبالتالي سيكون الآب أيضًا، الكائن مع الابن، غير موجود منذ البدء. لأنني أتعلم بواسطة **الكلمة**، ومن خلاله أفهم أن الله (الآب) موجود وكائن. فإن كنت أؤمن أن **الكلمة** أزلي، وهذا ما أؤمن به، لن أشُك مُطلقًا في أزليَّة الآب. ولكن إن كنت أظن أن ميلاد الابن من الآب هو ميلاد زمني، فسيصبح الابن مجرد مخلوق يُشبه بقية المخلوقات، وبالتالي سيكون الآب (الكائن مع الابن) خاضع للبداية الزمنية هو أيضًا. ولكن إن كنت لا تشك في أزليَّة الآب، لأنه ليس من طبيعة الله أن تكون له بداية؛ وإن كنت لا تشك في أزليَّة الآب، لأن طبيعة الله لها كمال أزلي؛ فلا تشك إذن في أزليَّة ابنه.

عمومًا، لكي لا نرتبك بسبب استخدام ألفاظ بشريَّة مثل "الكلمة" و"الابن"، فقد حَسَمَ القديس يوحنا الأمر حين قال: "**وكان الكلمة الله**" لكي يبرهن بكل وضوح على مساواة الابن للآب.

مفهوم الكلمة

(١٩) إذن، فبدون أي شك نحن نؤمن أن كل ما للآب هو للابن، لأنه هو الله. فكيف تُنكر إلوهيَّة الابن مع أن له مع الآب اسم الله الواحد؟ لا تترك بريق تعبيرات الهراطقة وتشابه الألفاظ يخدعانك. فالكلمة الزمنية التي تتكون من مقاطع وتتركَّب من عدة حروف، هي شيء؛ ولكن الابن ليس مثل هذه الكلمة، لأنَّ الآب أبو **الكلمة** ليس هكذا.

(٢٠) فلنحذر نحن أيضًا من الفهم الخاطئ، ونتخيل أننا بصدد التكلم عن "نُطق" مادي ملموس لله. فالله غير مادي، وبالتالي "**فنُطقه**" أيضًا غير مادي.[١٧] وإذ كان النُطق المادي ليس من طبيعة الآب، فبالتالي سيكون الابن المولود منه (المنطوق منه) "**كلمة**" غير مادي كذلك.

وهكذا، إذ كان الآب حُرًّا من أي أمور مادية، فسيكون الآب بالتالي فوق الزمن؛ وإذا كان الآب فوق الزمن، فسيكون "**الكلمة**" فوق الزمن أيضًا. وبما أن **الكلمة** لا توجد له بداية زمنية، فبالتأكيد هناك **كلمة** واحد لا يخضع لدرجاتٍ أو لعددٍ،[١٨] فهو واحد بمقتضى طبيعته.

طبيعة الله لا يُمْكِنْ إدراكها

(٢١) لا تسأل عن ماهية طبيعة الله. فأنا جاهل كل الجهل بهذا الأمر. ما أعرفه حسنًا فقط: هو أنني لا أعرف ما لا أستطيع معرفته. يقول يوحنا الرسول: "**الذي رأيناه وسمعناه**

[١٧] إذ يقارن هنا بين السيد المسيح كلمة الله، وبين لفظة الكلمة في معناها العادي، فهو يوضح أن الآب أزلي وغير مادي، بالتالي فالكلمة الذي ينطق به أي يلده سيكون كلمة أزليًا غير مادي أيضًا.

[١٨] يرد ق. أمبروسيوس هنا على القائلين بوجود أكثر من كلمة "logos"، وبأنه يوجد تدرج وترتيب لهذه الكلمات من حيث الكرامة والعظمة.

نُخبركم به" (١يو ١: ٣). ما قاله فقط هو أنه يعرف جيدًا ما سمعه وما رآه، وهو الذي كان يتكئ في حضن المسيح[١٩]. هكذا، كان كافيًا بالنسبة له أن يسمع؛ أليس إذًا هذا كافيًا لي؟

(٢٢) التعاليم التي سمعها يوحنا قد أخبرني بها، إذًا فما قد سمعه يوحنا مِنْ المسيح لا أستطيع أنا أن أقوم بإنكاره، لأن هذا التعليم يُعتبر الحق الخاص بالمسيح. لذا، ما قد سمعه قد سمعته، وما قد رآه قد رأيته. لأنه أخبرنا عما قد رآه، بالطبع هو لم يرَ الإلوهيَّة التي لا يمكن أن تُرى. ولكن، لأن الله بحسب طبيعته لا يمكن أن يُرى، فقد لَبِسَ ما هو خارج طبيعة إلوهيَّته، حتى يُرى حسب طبيعة جسدنا. أخيرًا، أخبرنا يوحنا أيضًا عن رؤية الروح القدس في هيئة خارجية، على شكل حمامة، لأن الإلوهيَّة لا يمكن أن تُرى في حقيقة بهائها.

---

[١٩] انظر: يو١٣: ٢٣.

الفصل الرابع

إله كامل وإنسان كامل

(٢٣) لذلك، لا تُفسِّر الأمور الخارجة عن اللاهوت (أمور الناسوت) بحسب ما يخص طبيعة اللاهوت. فرغم أنك تؤمن أن المسيح قد لَبِسَ جسدًا حقيقيًا وتُقدِّم جسده الخاص كي يتحوَّل على المذبح، فإنك مازلت لا تُميِّز بين طبيعة إلوهيَّته وطبيعة جسده، لذلك يُقال لك أيضًا: "**إن قدَّمت قربانًا ولم تَعرف أن تُقسِّم حسنًا، فقد أخطأت. توقَّف**".

لذا فأنا أنصحك، قسِّم ما هو لي؛ وقسِّم ما هو **للكلمة**. فإني لم أكن أمتلك ما له؛ وهو لم يكن يمتلك ما هو لي. هو أخذ ما لي[٢٠] حتى يشاركني ما له. أخذ ما لي لا لكي يشوِّشه، بل ليكمِّله[٢١]. فإذا كنت تؤمن بأنه أخذ ما لنا، لكنك تدعي أن

---

[٢٠] نقول في ثيؤطوكية يوم الجمعة في القطعة الأولى: "هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له". وأيضًا انظر: "يو١: ١٤، في٢: ٧، ٢كو٥: ٥، ١تس٤: ٨، ٢تس٢: ١٦، ١يو٣: ١؛ ٤: ١٣؛ ٥: ١١و٢٠". وقد استخدم القديس أمبروسيوس هذا التعبير في تفسيره لإنجيل لوقا ٢: ٥٧ (PL 15: 1573). والقديس إيرينيؤس في عمله "ضد الهرطقات ك٤: ف٣٣: ق١١و١٢" (PG7: 1080-1081). وأيضًا، القديس كيرلس عمود الدين في "رسالة ١: ١٨" (PG16: 15-18).

[٢١] من الأهداف الرئيسية لتجسد السيد المسيح، هو أن يُكمِّل نقائص جسدنا ويشفي كل ضعف في طبيعتنا.

(طبيعة الناسوت) قد تشوّشت؛ فإنك بذلك قد توقفت عن أن تصير من أتباع ماني، ولكنك لم تبدأ بعد أن تكون ابنًا للكنيسة.[٢٢]

(٢٤) فإذا كنت تؤمن بأن المسيح قد أخذ جسدًا بالفعل، ولكنك تَنسب الآلام للإلوهيَّة، فإنك بالتأكيد قد تجنبت جزءًا مِنْ الشر، ولكن ليس الشر كله؛ لأنك تؤمن بما تعتقده يعود بالنفع عليك، لكنك للأسف لا تؤمن بما هو لائق بالرب.

أصل المسيح الأزلي

(٢٥) أقول مجددًا، إذا كنت تؤمن بأن إله العهد الجديد والعهد القديم هو واحد، ولكنك تفصل بينه وبين كلمته زمنيًا من خلال أي أزمنة أو أوقات، بذلك يكون فالنتينوس الهرطوقي مقبولاً أكثر منك، لأن فالنتينوس لم يعتقد بوجود أزمنة ودهور قبل الله، بل آلهة أخرى لأنه كان يعتبر أن الدهور آلهة...

(٢٦) والأكثر مِنْ ذلك، إذا كنت تؤمن بأن المسيح لم يأخذ بدايته مِنْ العذراء، ولكنك مازلت تعتقد أن هناك بدءًا سابقًا عن

[٢٢] كان ماني يرفض فكرة أن السيد المسيح قد أخذ جسدًا، لذلك فأي شخص يؤمن بتجسد المسيح لا يكون من أتباع ماني، ولكن يجب أن يرافق هذا الإيمان، اعتقاد سليم باتحاد اللاهوت والناسوت دون أي اختلاط أو تشويش أي أن الناسوت بقى كما هو ولم يتأثر باتحاد اللاهوت به مما جعله يفقد أي من خواصه.

المسيح، فيكون كل ما فعلته هو أنك وضعت فارقًا زمنيًا بين المسيح والعذراء، لأنك قد أنكرت أن المسيح مساوٍ للعذراء (من جهة أصله)، ولكنك لم تنكر أنه مساوٍ لها في الخضوع للزمن.

أما أنا فإني لا أنكر أنه مساوٍ للعذراء بحسب اتخاذه الجسد، ولكني أعترف به خالقًا للزمن. لأنه، ما هي المنفعة التي ستجتنيها عندما تقول إن المسيح هو هذا أو ذاك المخلوق؟ فالمخلوق يتغيَّر ويتبدَّل، وإن كان المسيح هكذا، فلن يكون إلهًا يستحق العبادة والتكريم.

شهادة بطرس

(٢٧) المسيح لم يرغب في أن يُعرَف بيننا هكذا، ولا أن يُنظَر إليه فقط كشخص له صفات خارقة. أخيرًا، حينما سأل تلاميذه: "**مَنْ يقول الناس إني أنا؟**" (مت١٦: ١٣)، أجاب البعض: إيليا، وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء، ... إلخ، لكنه لم يهتم برأي أحد منهم؛ وعندما قال بطرس: "**أنت هو المسيح ابن الله الحي**" (مت١٦: ١٦)، مدحه وحده عن استحقاق.

(٢٨) هكذا بنفس هذا الإيمان، تحدَّث يوحنا وبطرس الرسولان، والمسيح قد استحسن ذلك، فهل لا تستحسنه أنت، أيها الأريوسي؟ هل تظن أن يوحنا وبطرس ليسا جديرين بالتصديق، هذان اللذان قد استأمنهما المسيح على تقديم الشهادة

على مجده من أجل إيمان الجميع؟ وفي النهاية، فقد ظهر المسيح مع موسى مع إيليا، كما لو كان هذا الأمر دليلاً على شهادة العهدين القديم والجديد لإلوهيَّته، ونلاحظ ذِكر بطرس مع يوحنا كثيرًا (في حادثة التجلي).

(٢٩) يقول بطرس: "**أنت هو**" (مت١٦: ١٦)، ولم يقل: "أنت الذي قد ابتدأت أن تكون". يقول بطرس: "**أنت هو المسيح ابن الله الحي**" (مت١٦: ١٦) ولم يقل: "أنت مجرَّد مخلوق"، وهو نفس ما قاله يوحنا. فإن كنت لم تؤمن بما قاله يوحنا، لأنك لم تفهم سر ذاك الذي كان يتكيء[٢٣] في حضن الحكمة، فأمامك بطرس وهو قد كررَّ نفس التعليم. والسيد المسيح قد مَدَحَ الاثنين؛ الواحد من أجل شهادته، والآخر من أجل السر الذي أعلنه. فلقد تكلم يوحنا عن هذا أمر (لاهوت المسيح) في بشارته حتى تقرأ أنت أنه كان مُتَّكئًا في حضن المسيح، وربما تفهم أن رأس يوحنا التي فيها مركز كل أحاسيسه، قد امتلأت بنوعٍ من الحِكمة المُقدَّسة من خلال ذلك. وإذا كنت لا تعتقد بضرورة إيمانك بسر يوحنا، فعلى الأقل لا تنقض شهادة بطرس. لقد مُدِحَ بطرس لأنه آمن أن مَنْ رآه هو ابن الله، ولأنه فصل نفسه عن دائرة الآراء الفظة التي قالها الشعب الجاهل.

---

[٢٣] انظر يو١٣: ٢٣.

صمت بطرس

وأخيرًا نطرح سؤالاً، عندما سأل الرب ماذا يقول الناس عن ذاته، فلمَّا ذُكِرَ رأى الجمهور، لماذا كان بطرس صامتًا؟

(٣٠) فأنت، يا سمعان كنت صامتًا، كنت صامتًا بينما الآخرون كانوا يُجيبون. وبما أنك معتاد أن تكون أول من يرد على الأسئلة، حتى حين تكون غير موجَّهة إليك، ألا تخاف أن يوبخك الرب لأنك لم تجبه عندما طرح سؤاله هذا؟

يقول بطرس: "لهذا السبب عينه أنا لم أجب لأني لم أُسأل عن رأيّ، بل عن رأي الآخرين، إذ قد قرأت: "**لا أذكر أعمال البشر بشفتاي**"[٢٤]. فضلاً عن ذلك، فعمل الأشرار هو أن يبشّروا بشرورهم. لذلك، فأنا لا أزال صامتًا، لأني لم أُسأل حتى الآن عن ما أظن؛ لذا فلن تتفوّه شفتيّ بما لم استصوبه بعقلي. سيحين الوقت كي أرد، ولكن فقط عندما سأُسأل عن ما أعتقد؛ حينها، سأُجيب بما يخصني. إذ يخصني أن أتكلَّم عن الإيمان، أن أُعلِن إخلاصي وأُنادي بالنعمة.

(٣١) لذلك، لم يكن بطرس صامتًا لأنه كان بليد العقل أو ثقيل الكلام، ولا لأنه كان مترفِّعًا عن تقديم إجابته القيِّمة لنا؛ بل

---

[٢٤] انظر مز ١٦: ٤.

كإنسانٍ حذرٍ كان يتجنب خطر رأى العامة، مثل إنسان يتفادى الخطر القادم عليه لكي يُحافظ على سلامته. وأنت تعرف أن بطرس قد قفز مِنْ السفينة لملاقاة الرب، لا شهوة في المجد بل تلهُّفًا للطاعة.

(٣٢) وبطرس قد ظلَّ صامتًا لكي نتعلَّم أننا ينبغي أن لا نُردِّد كلام غير المؤمنين، فبطرس عينه عندما سَمَعَ سؤال الرب: "**مَنْ تقولون إني أنا**" (مت١٦: ١٥)، لم يتغافل عن مكانته، ومارس مباشرةً أوَّليته، أوَّلية الاعتراف بالمسيح وليس أوَّلية الكرامة، أوَّلية الإيمان وليس أوَّلية المنزلة. وهذا يعني أنه قال: "يجب ألا يسبقني أحد الآن، قد حان دوري، ينبغي أن أُعوِّض عن صمتي؛ فصمتي يجب أن يكون له فائدة. فلساني لن ينشوَّش؛ إذ يتحتم أن يُظهِر الإيمان بلا أية صعوبة". وبينما كان البعض ينطقون بالتفاهة التي أُعلِنت بواسطة مَنْ قالوا إن المسيح هو إما إيليا أو أرميا أو أحد الأنبياء، لأن هذا هو صوت التفاهة، هذا هو صوت التشويش. لذا، فبينما كان البعض يغسلون هذه التفاهة من على ألسنتهم، وبينما كانت الحيرة تُربِك البعض الآخر، أنطلق صوتك يا بطرس قائلاً: "**هذا هو المسيح ابن الله**".

(٣٣) هذا هو إذن بطرس الذي جاوب نيابة عن بقية الرسل، بل إنه جاوب قبل أي شخص من البشر. ولهذا دُعيَ "الأساس"، لأنه يعرف كيف يحفظ ليس أساسه فقط، بل الأساس العام أيضًا. فالمسيح وافقه والآب أعلن هذا له. لأن مَنْ يتكلَّم عن الابن الحقيقي الذي للآب، يكون كلامه إعلانًا من الآب وليس مِنْ أي جسد[٢٥].

[٢٥] انظر مت١٦: ١٦، ١٧.

الفصل الخامس

التجسُّد أساس الإيمان

(٣٤) الإيمان إذن هوِ أساس الكنيسة، لأنه لم يقُل عن بطرس ذاته، ولكن عن إيمانه: "**أبواب الجحيم لن تقوى عليها**" (مت١٦: ١٨). فاعتراف بطرس بالإيمان غَلَبَ الجحيم. صحيح أن هذا الاعتراف لم يمنع الهرطقات، لأن الكنيسة تُشبه السفينة القوية، غالبًا ما ستلطمها الأمواج العاتية، إلا أن أساس الكنيسة ينبغي أن يقوى على كل الهرطقات.

(٣٥) أشعر بأن النهار سوف ينقضي قبل أن أذكر كل أسماء الهراطقة وأُورِد كل الآراء المخالفة مفندًا جميع تلك الأفكار. لأجل هذا سأقدِّم الإيمان العام الموجَّه ضدهم جميعًا: إن المسيح هو ابن الله، إذ له وجود أزلي مِنْ الآب، ولكنه قد وُلِدَ أيضًا مِنْ مريم العذراء. لذا يصفه لنا داود النبي العظيم بأنه "**جبار**"، وذلك لأنه واحد مِنْ جوهرين ومِنْ طبيعتين، إذ أنه يجمع في ذاته اللاهوت والناسوت، فهو "**مثل العريس الخارج من خدره يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق**" (مز١٨: ٦س). هو عريس النفس بصفته الكلمة، وهو جبار الأرض لأنه اجتاز أمور حياتنا مع كونه دائمًا إلهًا أبديًا، فقد اقتبَل في ذاته سر التجسُّدِ. بدون أي انقسام بل في وحدة كاملة،

لأنه هو "**الواحد**" يكون كليهما وواحدًا من كليهما[٢٦]؛ إذ كانت له جميع صفات الاثنين، اللاهوت والناسوت. لأنه لا يوجد واحدٌ مِنْ الآب وآخر مِنْ العذراء، بل الذي مِنْ الآب هو نفسه الذي مِنْ العذراء.

المسيح العجيب

(٣٦) نفس الواحد تألم ولم يتألم، مات ولم يمت، دُفِنَ ولم يُدفَنَ، قام ثانيةً من الموت، ولم يقم من الأساس[٢٧]؛ لأن الجسد[٢٨] وحده قد لَبِسَ الحياة مرة أخرى، لأن ما سَقَطَ هو الذي قام مجددًا، وما لم يسقط لم يقم ثانية. ولذلك، هو قام بحسب الجسد الذي مات، ولم يقم بحسب **الكلمة** الذي لم يهلك في الأرض، بل هو باقٍ على الدوام مع الله.

---

[٢٦] السيد المسيح له لاهوت كامل وناسوت كامل، ولكن في اتحاد غير موصوف دون انفصال أو افتراق.

[٢٧] السيد المسيح قد قام من الأموات بحسب ناسوته الذي مات وقبر في القبر، لكننا لا نستطيع القول بأنه قام بحسب لاهوته لأن اللاهوت لم يموت أصلاً لكي يقوم بعد ذلك.

[٢٨] في كتابات الآباء بصفة عامة، حينما تُستخدم كلمة جسد في مقابل اللاهوت، فغالبًا يقصد بها الطبيعة الناسوتية الكاملة من جسد ونفس بشرية عاقلة، ولكن حين تستخدم في مقابل كلمة نفس أو روح فيكون المقصود بها الجسد الترابي فقط.

(٣٧) وهكذا، مات بحسب طبيعتنا ولم يمت بحسب جوهر حياته الأبديَّة؛ تألَّم بحسب اتخاذه للجسد، حتى نؤمن بحقيقة اتخاذه للجسد؛ فالمسيح لم يتألم بحسب إلوهيَّة **الكلمة** غير المتغيرة، إذ هي بلا ألم من الأساس. أخيرًا، هذا **الواحد** قال: "**إلهي إلهي لماذا تركتني**" (مز ٢١: ١س)، لأنه تُرِك بحسب الجسد، ولكن بحسب إلوهيَّته لا يمكن أن يُهجَر أو يُترَك.

(٣٨) ونفس الواحد يقول أيضًا: "**بعيدٌ عن خلاصي هو كلام خطاياي (ضعفاتي)**" (مز ٢١: ١س). فيجب ألا ينخدِع أحد حينما يسمع المسيح يقول: "**لماذا تركتني**"، بل يجب عليه فهم أن هذه الكلمات قيلت بحسب الجسد، ولكنها غريبة جدًا عن كمال إلوهيَّته. لأن كلمات الضعف غريبة عن الله، بسبب أن ضعفات الكلام عمومًا هي أيضًا غريبة عنه. ولكن يقول المسيح: حينما أخذتُ ضعفات الآخرين، أخذت كلام الضعف الخاص بالآخرين أيضًا، لذلك صرَّحت بأني قد تُرِكت مِنْ قِبَل الله الآب، بينما أنا كائن دائمًا مع الله.

(٣٩) لهذا السبب، كان المسيح (من جهة لاهوته) خالدًا في الموت، وغير قابل للألم في آلامه. لأن حمية الموت لم تَسُدْ عليه كإله، ولكن الجحيم قد رآه كإنسانٍ. أخيرًا "**أسلم الروح**" (مت٢٧: ٥٠) وكسيدٍ قادر على خلع الجسد ولبسه أيضًا، أسلم الروح دون أن يفقده.

عُلِّق على الصليب،
وبات الجمع مضطربًا،
ارتجف على الصليب،
وهو الذي يرتعد أمامه الكون بأسره.
كان في قلب العذابات وجُرِحَ،
إلاَّ أنه وَهَبَ ملكوت السموات.
وبعد أن صار خطيئةً، خطيئة كل البشر،
أزال خطايا الجنس البشري.
وأخيرًا، مات.
وللمرة الثانية والثالثة أقولها مبتهجًا:
مات حتى يصير موته الخاص حياة للأموات.

(٤٠) حتى قبره لم يكن بلا معجزة. فعندما مُسِحَ بالطيب بواسطة يوسف الرامي ودُفِنَ في القبر[٢٩]. صنَعَ عملاً جديدًا فائقًا، إذ قد فَتَحَ قبور الأموات. ورغم أن جسده الخاص كان موضوعًا بالفعل في القبر، كان هو نفسه حُرًّا مِنْ بين الأموات مُنعِمًا بالمغفرة على الذين كانوا في الجحيم... كان جسده في القبر ولكن عملت قوته من السماء. وأَظهَر للكل بواسطة جسده الحقيقي أن الجسد لم يكن **الكلمة** بل جسد **الكلمة**. حقًا، ذاق

[٢٩] انظر مت٢٧: ٥٠.

الجسد الموت، إلا أن قدرة الرب غير قابلة للألم؛ ومع أنه قد خَلَعَ الجسد(بالموت)، لكن كإلهٍ لم يخسر شيئًا بسبب خلع الجسد.

المسيح الحكمة الأزليَّة

(٤١) لماذا تَنسب أوجاع الجسد إلى الإلوهيَّة، وتَربط ضعف الألم الإنساني بالطبيعة الإلهيَّة؟ يقول المسيح: "**الآن نفسي قد اضطربت**" (يو ١٢: ٢٧). لقد قال أن نفسه هي التي اضطربت وليس حكمته؛ لأن حكمته بقت بلا أي تغيير، رغم أنها مستورة بالجسد. لأن **النور** الحقيقي كان محتجبًا داخل شكل العبدِ؛ ولما انحلَّ شكل العبد من تلقاء ذاته (بسبب الموت)، بقى **النور** موجودًا كما كان على الدوام...

وحينما كان المسيح في الموت، لم يكن في ظلام الموت. ولذلك سكب نور الحياة الأبديَّة على أولئك الذين كانوا في الجحيم. أضاء نور الحكمة الحقيقي هناك؛ أنار الجحيم دون أن يُحبَس فيه. فما هو مكان الحكمة إذن؟ يقول الإنسان البار: "**أما الحكمة فمِنْ أين توجد، وأين هو مكان الفهم؟ لا يعرف الإنسان مكانها ولا توجد في أرض الأحياء**" (أي ٢٨: ١٢-١٣).

(٤٢) لذلك، فالحكمة غير خاضعة لا للزمان ولا للمكان، لأن الزمن له بداية. فمن سنُخضِع للزمان، هل سنُخضع الكائن

منذ البدء؟ ومن سنُخضِع للمكان، هل سنُخضع الكائن على الدوام مع الله؟ لأننا إذا بحثنا أين نجد الابن الوحيد، لوجدناه، بحسب كلام الإنجيل، في حضن الآب. فهل تعتبر حضن الآب مكاناً؟ وهل تريد أن تكتشف كيف وُلِدَت الحكمة؟.. سيجيبك أيوب النبي قائلاً: "**لا يعرف الإنسان مكانها**" (أي٢٨: ١٣)؟ وهل ستعتقد أن **الحكمة** لها أصل بشري، بينما أيوب يقول إنها "**لا توجد في أرض الأحياء**" ؟ وهل تنسب الموت **للحكمة** التي فيها "**يقول الغمر: ليست هي فيَّ، والبحر يقول: ليست هي عندي**" (أي٢٨: ١٤)؟ فالسماء لا تقول: "ليست هي فيَّ" ولكن الغمر هو الذي يقول ذلك. لأن الحكمة قالت للآب وليس للغمر: "**في يديك أستودع روحي**" (لو٢٣: ٤٦). وعلى الرغم من أن نفسه كانت في الجحيم، لكنها لم تَعُد هناك بعد، لأجل ذلك كُتِبَ: "**لأنك لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدع قدوسك يرى فساداً**" (مز١٥: ١٠س).

(٤٣) ومن أجل ذلك يقول البحر: "**ليست هي عندي**"، أي أن حياتنا الأرضية المضطربة بسبب أمواج العالم هي التي تقول ذلك. لأن جسده الخاص لم يعد في وسط البشر، لأننا لم نَعُد بعد نعرف المسيح حسب الجسد[٣٠]. تقول الأرض: "**ليس**

[٣٠] انظر ٢كو٥: ١٦.

هو عندي" لأنه قد قام، لذلك قال الملائكة: "**لماذا تطلبن الحي بين الأموات؟**"[٣١].

حسنًا قال البحر: "**ليس هو عندي**" لأنه فوق البحر. إذ قد مشى على البحر بخطى جسديَّة، عندما أمر بطرس أن يأتي إليه ماشيًا على الماء[٣٢]، وإن كان بطرس قد مشى مضطربًا؛ فإن اضطرابه لم يكن بسبب ضعف مَنْ أَمَرَه (المسيح) ولكن بسبب ضعف مَنْ أطاع (بطرس).

(٤٤) مِنْ أجل ذلك، لا تخلط ظلمة طبيعتنا البشريَّة ببهاء مجده، لا تَبسط سحابة الجسد البشري فوق نوره. وسأكرر ما قلته سابقًا، إذا كنت قد سَمِعت السيد المسيح يُصرِّح بآلامه، ولم تستطع أن تتعرَّف على طبيعة ذلك الشخص الذي وقَعت عليه تلك الآلام، فإنك بذلك تكون قد دحضت محبة الله وأنكرت خلاصك.

لهذا، فأولئك الذين قد علَّموا أن الكلمة تعرَّض للألم بحسب طبيعته الإلهيَّة عندما سمعوا ابن الله يقول: "**لماذا تضربُني؟**"[٣٣]، يجب اعتبارهم مختلِّين. فحقيقةً قال الرب: "**لماذا تضربُني**"، ولكن لم يقع الضرب على طبيعته الإلهيَّة. فقد قال: "**بذلت**

---

[٣١] لو ٢٤: ٥.

[٣٢] انظر مت ١٤: ٢٦-٢٩.

[٣٣] انظر يو ١٨: ٢٣.

ظهري للضاربين، وخديَّ للناتفين. وجهي لم أستر عن العار والبصق" (إش٥٠: ٦). لاحظ أنه قال: "**ظهري... وجهي... وخديَّ**" أي أنه أشار إلى أعضاء الجسد البشري. لأن ما عاناه جسد **الكلمة**، حتى وهو في الجسد، عاناه **كلمة** الله بالجسد؛ كما هو مكتوب: "**فإذ قد تألَّم المسيح لأجلنا بالجسد**" (١بط٤: ١). وبكل تأكيد، كان السيد المسيح يُشير إلى ذاته عند نطقه بهذه الكلمات، من جهة كونه قد لَبِسَ جسدًا، فلقد احتمل على نفسه ما لنا، لكي يستر البشريَّة بما له.

(٤٥) حقًا، تألم جسده بحسب طبيعة الجسد، ولكن لم تتغيَّر طَبيعة الكلمة بسبب آلام الجسد؛ لأن قيامتنا تصير حقيقة، طالما كانت آلام المسيح واضحة بالحقيقة.

الفصل السادس

آراء الهراطقة كلها خاطئة

(٤٦) لم تكن آلام المسيح إذن مجرد خيال، كما يقول البعض، لأنه لم يمش على البحر كخيالٍ، كما اعتقد التلاميذ بالخطأ قائلين في الإنجيل: "إنه **خيال**" (مت١٤: ٢٦). ولكننا نلتمس لهم العذر "**لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِد بعد**" (يو٧: ٣٩). أما بالنسبة لنا؛ فالمسيح صُلِبَ ومات وقام، وأعطى لنا الروح القدس؛ الذي هو مُعلِّم الحق. فلقد أخطأ التلاميذ في ذلك الوقت؛ لكي تتأكَّد أنت ولكي لا نُخطئ جميعًا فيما بعد. وهكذا، فإن خطأهم كان مفيدًا لنا. وهم وإن أخطأوا كبشر، لكنهم قد آمنوا كتلاميذ.

(٤٧) وكما أن أولئك الذين يدَّعون بأن المسيح قد أتى في جسد خيالي، يجب أن نُدينهم. بالمثل أيضًا، يجب أن نُدين أولئك الذين يقولون إن ابن الله ليس واحدًا وليس متساويًا مع الآب، وأن الذي وُلِدَ مِنْ الله الآب هو آخر عن الذي جاء مِنْ العذراء. فيوحنا الإنجيلي يقول لكم: "**والكلمة صار جسدًا**" (يو١: ١) لكي تؤمنوا بأن الرب يسوع هو واحد وليس اثنين.

(٤٨) وبعض آخر يؤمنون بأن **كلمة** الله ليس هو ابن الله، رغم أن الإنجيلي يشهد أن **الكلمة** الذي كان في البدء مع الله الآب قد جاء إلى خاصته[٣٤].

وهناك أيضًا ثمة أُناس علَّموا بأن **الكلمة** مثلما صار واحدًا من الأنبياء، هكذا صار أيضًا مسيحًا، أي أنه قد صار مسيحًا ليس لأنه **كلمة** الله. لكننا نعلم أن لا أحد من الأنبياء قيل عنه: "**إن الكلمة صار جسدًا**"، ولا أحد من الأنبياء غفر خطايا العالم. ولا أحد من الأنبياء قيل عنه: "**هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت**" (مت٣: ١٧). ولا نقرأ عن أحد الأنبياء أنه هو رب المجد، وهو ما قاله الرسل عن المسيح: "**اليهود صلبوا رب المجد**"[٣٥].

(٤٩) وبينما نُفنِّد تلك الآراء الخاطئة، يظهر آخرون يقولون إن جسد وإلوهيَّة الرب من طبيعة واحدة. يا لتلك الأماكن الشيطانية التي أخرجت تدنيسًا للمُقدَّسات مثل هذا؟! حقًا، إنهم الأريوسيين وقد تعاظمت خيانتهم من خلال أولئك الرجال، فهم يؤكدون بإصرار أعظم أن الآب والابن والروح القدس ليسوا من جوهر واحد. وبقولهم إن **الكلمة** قد تحوَّل إلى جسد وشَعر

---

[٣٤] يو ١: ١.

[٣٥] انظر ١كو ٢: ٨.

ودم وعظام، وقد تغيَّر من طبيعته الأصليَّة، فإنهم بذلك يجعلون الفرصة سانحة أمام الأريوسيين كي ينسبوا ضعف الجسد إلى إلوهيَّته، بواسطة إحداث نوع من التغيير في الطبيعة الإلهيَّة.

(٥٠) وهناك أيضًا آخرون قد مضوا إلى درجة كبيرة من الكفر؛ معتقدين أن لاهوت الرب قد صُلِبَ، جاعلين اللاهوت يتغيَّر من حالة الكمال إلى حالة عدم الكمال، قائلين إن الجسد لم يُعلَّق على الصليب بل الجوهر الإلهي هو الذي عُلِّقَ عليه؛ جاعلين خالق كل المخلوقات مشبَّهًا بالبشر.

فمن لا يرتعد من هذا! ومن سيُعجَب بذلك: إن **كلمة** الله أخذ جسده الخاص القابل للآلام ليس من العذراء القديسة مريم، بل من الجوهر الإلهي؟ وهم حين يؤكدون على هذا، ينزلقون إلى تلك الدرجة التي تجعلهم ينادوا بأن جسد الرب لم يُتَّخذ في ملء الزمن بل كان دائمًا أبديًّا مصاحبًا **لكلمة** الله.

(٥١) لذلك يُصبح مبتدعًا لكل الهرطقات، مَنْ يقول إن الإلوهيَّة وجسد الرب هما من طبيعة واحدة. لأني قد قرأت للأسف كتابات المؤلف[٣٦] الذي كتب هذا الكلام، لقد قرأت ما لم أؤمن به، وكنت أتمنى ألا أقراها بنفسي. لذلك، فقد طرحت عن كاهلي هذا الأمر، حتى يُكتَشف اسم هذا المُبتَدع من كتاباته،

[٣٦] يقصد القديس أمبروسيوس بهذا المبتدع: أبولليناريوس أسقف اللاذقية.

وحتى يلاحظوا أن قوة الحق لا يمكن أن تُستَدل بواسطة المجادلات والكلام مهما كان منمّقًا وجيدًا

الكتب المُقدَّسة تشرح التجسُّد

(٥٢) وهذا المُبتَدع يدَّعي دائمًا إيمانه بقوانين مجمع نقيــة. ولكن آباءنا في نيقية قد أقروا في هذه القوانين أن **كلمة** الله من جوهر واحد مع الآب، غير قائلين إن الجسد له هــذا الجــوهر الواحد أيضًا، واعترفوا أن **الكلمة** من جوهر الآب، أما الجسـد فمأخوذ من العذراء. كيف إذن يستشهد هذا الشخص بما قيل في مجمع نيقية، مادامــت الكتب المُقدَّسة تقول إن المسيح قد تــألم بحسـب الجســد وليس بحسب إلوهيَّته[٣٧] وتقـول أيضًا: "**هـا العذراء تحبل وتلد ابنا**" (أش ٧: ١٤). لأنها نالت قوة وحَمَلَــت ابنًا، وقد ولَدَت هذا الابن بنفسها.

(٥٣) وهذا ما أعلنه غبريال الملاك في كلمــاتٍ واضـحةٍ قائلا: "**القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله**" (لو ١: ٣٥). يقول: "منكِ" حتى تعرف أنه وُلِدَ منها كإنسانٍ... لأن بـولس يقــول: "**الذي سَبَقَ فوَعَدَ به بواسطة أنبيائه في الكتبَ المقدسة، عـن ابنه. الذي صار من نسل داود من جهة الجسد**" (رو ١: ٢، ٣) وإلى أهل غلاطية يقول: "**ولكن لمَّا جاء ملء الزمان، أرسـل**

---

[٣٧] انظر (١بط ١: ٢.)

الله ابنه مولودًا من امرأة، مولودًا تحت الناموس" (غلا٤: ٤)، وإلى تلميذه تيموثاوس يقول: "**اُذكُرْ يسوع المسيح المُقام من الأموات، من نسل داود**" (٢تي ٢: ٨).

الطبيعة الإلهيَّة لم تتغيَّر بالتجسُّد

(٥٤) ولهذا استلَمَ المسيح منا ما قد سَبَق ووهبنا إياه كخاصته (الجسد)، حتى يفتدينا مما لنا (الموت)، ومِنْ فيضه الإلهي يمنحنا ما لم يكن لنا (الحياة الأبدية). إذن، قدَّم المسيح ذاته بحسب طبيعتنا، حتى يصنع من داخل طبيعتنا عملاً يفوق قدرتنا، والمقصود بهذا العمل هو الذبيحة، التي من خلالها قد نلنا الجعالة. وإذا بحثت في حياة المسيح ستجد أمورًا كثيرة، أحيانًا تكون أمورًا طبيعية وأحيان أخرى ستجدها أمور فوق الطبيعة. لأنه بحسب طبيعتنا كان في الرحم، ووُلِدَ، ورَضَعَ، وأُضجِع في مذودٍ؛ أمَّا كون عذراء تحبل به وتلده، فتلك أمور غير طبيعية. لقد حدث كل هذا حتى تؤمن أن مَنْ جدَّد بميلاده تلك الطبيعة هو الله وأن الذي وُلِدَ بحسب الطبيعة هو إنسانٌ.

(٥٥) لذلك أخطأ البعض حين اعتقدوا بأن طبيعة **الكلمة** ذاتها قد تغيَّرت، تلك الطبيعة التي لا يمكن أن تتغيَّر كما يقول الرب نفسه: "**لأني أنا الربُّ لا أتغيَّر**" (ملا٣: ٦). وكما يقول أيضًا بولس: "**يسوع المسيح هو هو أمسًا واليوم وإلى الأبد**" (عب١٣: ٨)...

(٥٦) وهكذا، قد تعلَّمت أن المسيح قدَّم ذبيحة من طبيعتنا. لأنَّ ما هو هدف التجسُّد، ما لم يكن أن يَفتدي الجسد الذي أخطأ، عن طريق جسد مماثل له؟ بهذه الطريقة ما أخطأ قد أُفتُدِيَ. فإلوهيَّة **الكلمة** لم تكن هي التي قُدِّمت كذبيحة لأنها لم تُخطيء؛ ولهذا فإن طبيعة **الكلمة** الإلهيَّة لم تتغيَّر إلى طبيعة جسديَّة. لأن الإلوهيَّة، المنزَّهة عن الخطيئة، لم تكن مُجبَرة أن تُقدِّم ذاتها ذبيحة عن الخطيئة التي لم ترتكبها. فالمسيح هو الذي قدَّم في ذاته ما قد أخذه، إذ أخذ ما لم يكن له من قبل[٣٨]. لأنه لم يَلبس إلوهيَّته الخاصة، ولكنه لَبَسَ الجسد حتى يخلع غطاء الجسد (بالموت) ويصلب في ذاته غنائم الشيطان ويُشيِّد أكاليل الفضيلة.

اللاهوت يختلف عن الناسوت

(٥٧) كذلك، إن كان جسد الكل ــ حتى جسد المسيح ــ مُعرَّضًا للألم والأذى، فكيف تقول إن الجسد مِنْ جوهر واحد مع إلوهيَّته؟ وإذا كان **الكلمة** من جوهر واحد مع الجسد، ذي الطبيعة الترابيَّة، فهل سيكون **الكلمة** مِنْ جوهر واحد مع النفس العاقلة،[٣٩] التي أخذها المسيح لأجل طبيعته

[٣٨] أي أن المسيح لم يكن له جسد قبل ميلاده من العذراء مريم.

[٣٩] يخاطب القديس أمبروسيوس هنا الهراطقة الذي يدعون أن ناسوت المسيح كان له نفس طبيعة لاهوته، ويقول لهم : إذا كان الجسد له نفس طبيعة اللاهوت فهل ستكون النفس البشرية التي اقتناها المسيح هي من اللاهوت أيضًا.

البشرية؟ علاوة على ذلك، **فالكلمة** من جوهر واحد مع الله بحسب إعلان الآب وتأكيد الرب نفسه الذي يقول: "**أنا والآب واحد**" (يو ١٠: ٣٠). وهكذا، بأقوالكم تلك قد جعلتم الآب من جوهر واحد مع الجسد الترابي[٤٠]. أفلا تزالوا ساخطين من الأريوسيين، لأنهم يقولون إن ابن الآب مخلوق، بينما تقولون أنتم إن الآب والمخلوقات من طبيعة واحدة؟

(٥٨) وأنت بفكرك هذا، تُساوي بين الطين الذي خُلِقَ منه آدم، والجوهر الإلهي ذاته؛ أي أنك تُحوّل الإلوهيَّة إلى ضَعف الفساد الأرضي. لأنك حين تقول: إن **الكلمة** تحوَّل إلى جسد وعظام، فأنت تقول بالتالي إنه تحوَّل إلى الأرض وإن عظامه تحللَّت في الأرض، لأن الجسد والعظام من الأرض.

(٥٩) مكتوب هكذا: "**والكلمة صار جسدًا**" (يو ١: ١٤). هكذا مكتوب، وأنا لا أنكره. ولكن، لاحظ ما هو مكتوب في تكملة الآية: "**وحلَّ بيننا**"، لأن **الكلمة** الذي أتخذ الجسد قد حلَّ بيننا، أي أن **الكلمة** قد حلَّ في جسد بشري مثل أجسادنا، لهذا السبب دُعِيَ "**عمَّانوئيل**" التي تعني أن "**الله معنا**" (مت ١: ٢٥). ومن ذلك نفهم

[٤٠] بما أن السيد المسيح واحد مع الآب في الجوهر، بالتالي فأي هرطوقي ينادي بأن جسد السيد المسيح له نفس جوهر وطبيعة اللاهوت، فهو بذلك يجعل الجسد الترابي واحد مع الآب في الجوهر، ويكون بذلك قد جدف تجديفًا كبيرًا.

أن الآية "**والكلمة صار جسدًا**" تتحدث عن صيرورة الكلمة إنسانًا. وعلى سبيل المثال، حين قيل على لسان يوئيل: "**أني أسكب روحي على كل جسد**" (يؤ٢: ٢٨س)، كان يقصد أن انسكاب النعمة الروحيَّة هو وعد الله للبشر وليس للحيوانات.

(٦٠) ولكن، إذا تمسَّكت بالحَرف، ستظن من الآية "**والكلمة صار جسدًا**"، أن **كلمة** الله تحوَّل إلى جسدٍ، ولكن هل تُنكر ما قيل عن الرب إنه لم يفعل الخطيئة[٤١]. وبالتالي، هل الرب تحوّل إلى خطيئة[٤٢]؟ ليس كما تظن، بل حينما قَبِلَ الرب خطايانا دُعِيَ خطيئة. ودُعِيَ الرب أيضًا لعنة، ليس لأن الرب قد تحوّل إلى لعنة، بل لأنه نفسه أخذ لعنتنا؛ إذ يقول: "**ملعون كل مَنْ عُلِقَ على خشبة**" (تث٢١: ٢٣). أتندهش إذن، لأنه كُتِبَ "**والكلمة صار جسدًا**" حينما أَخَذَ **كلمة** الرب جسدًا، بينما لا تندهش حين كُتِبَ عنه "**صار خطيئة**"، رغم أنه لم يأخذ الخطيئة، لأن الرب لم تكن له أي خطيئة لا بحسب طبيعته، ولا بحسب الفعل أيضًا، لذلك وُصِفَ بأنه صار في شِبه جسد الخطيئة. فلكي يستطيع أن يَصلِب خطايانا في جسده، حَمَلَ عنا ثِقَل ضعفات الجسد المدان بالخطيئة الجسدانيَّة.

---

[٤١] (٢كو٥: ٢١)

[٤٢] انظر غلا٣: ١٣

(٦١) فليكفوا عن القول بأن طبيعة **الكلمة** قد تغيَّرت إلى طبيعة الجسد، لأن هذا الكلام سيقودنا بعد ذلك إلى القول بأن طبيعة الكلمة قد أُصيبَت بعدوى الخطيئة. فحقيقة أن الرب قد أخذ جسدًا شيء، وطبيعة ما قد أَخَذَه شيء آخر. لأن **القوة** حلَّت من السماء على العذراء كما قال الملاك: "**وقوة العليِّ تظلِّلك**" (لو ١: ٣٥)، ولكن جسد المسيح وُلِدَ من العذراء، وهكذا نجد أمامنا، نزولاً سماويًا، ولكنْ حَمْلٌ بشري. لذلك، فإن الناسوت واللاهوت لم يكونا مُطلقًا من نفس الطبيعة.

الفصل السابع

سر تجسُّد الرب

(٦٢) لقد ذهبت إلى نطاق واسع جدًا في الحديث، وأخاف أن تبدو كلماتي بالنسبة للبعض إما غير ضرورية أو طويلة بدون داعٍ... لأنه كيف يكون هناك ثمة نهاية للإجابات، طالما لا توجد نهاية للاعتراضات؟

(٦٣) وعلى الرغم من ذلك، فإني قد تعهَّدت بأن أضع نهاية لحديثي عن إلوهيَّة الآب والابن في عملي السابق، ولكن في هذا العمل سوف أتحدَّث عن سر **تجسُّد** الرب"[٤٣]. فعندما يقول الرب: "**نفسي حزينة جدًا حتى الموت**" و"**يا أبتاه. إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تُريد أنت** " (مت٢٦: ٣٨،٣٩)، فإن هذا الكلام لا يُشير إلى تألُّم الروح القدس[٤٤]، بل إلى اتخاذه نفس عقليَّة وإلى ألم الطبيعة البشريَّة وحزنها. لذلك، ففي تأكيدنا على سر تجسُّد الرب، نُوضِّح أن المسيح كان له طبيعة بشريَّة كاملة، وبالتالي نُبعِد الروح القدس

---

[٤٣] هنا يعطينا ق.أمبروسيوس العنوان الكامل لهذه العظة.

[٤٤] يقصد ق. أمبروسيوس أن السيد المسيح حين يستخدم كلمة "نفسي" يشير إلى النفس البشرية التي اتخذها حين تجسَّد، وليس للروح القدس.

عن أي أمور تتعلق بالضعف. فمَنْ لا يخضع للألم، لا يخضع بالتالي لأي ضعف.

جسد المسيح له نفس عاقلة

(٦٤) وكيف يدَّعي البعض أن الرب يسوع لم يأخذ نفسًا بشرية، حتى لو ادعوا خشيتهم أن يكون لدى المسيح ضعف الذهن البشري. إذ يقولون إن شهوة الجسد القوية تحارب دائمًا ضد ناموس الذهن كما قال بولس الرسول[٤٥]. ولكن بولس الذي قال هذا الكلام، لم يعتقد أن المسيح قد خضع إلى ناموس الجسد، وإلى رباطات الخطية؛ بل كان يؤمن أن المسيح يُقدِّم لنا المعونة الإلهيَّة في أوقات ضعف الجسد، إذ قال: "ويحي أنا الإنسان الشقي! مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت؟ أشكر الله بيسوع المسيح ربنا" (رو٧: ٢٤-٢٥). فهل سيخاف المسيح الذي يُخلِّص الآخرين مِنْ أتعاب الجسد الخطيرة، أن يسود عليه هذا الجسد.

(٦٥) وهم يقولون إن المسيح قد خاف من فخاخ هذا الجسد، لذا كان ينبغي عليه أن يرفض قبول الجسد حتى لا ينجذب ويسقط في الخطيئة الخطيرة. ولكن فليجيبوني، كيف يخاف

[٤٥] انظر رو٧: ٢٣.

حالة الخطيئة مَنْ قد أتى ليمحو الخطيئة؟ لذلك عندما أخذ المسيح جسد الإنسان، أخذ أيضًا كمال وملء التجسُّد، لأنه لا يوجد شيء غير كامل في المسيح. أعني أنه أخذ أيضًا نفسًا بشرية، والمقصود هنا نفس بشريَّة عاقلة وكاملة. لقد لَبَسَ الجسد حتى يرفعه مرة أخرى إلى السماء.

نبوة من إشعياء

(٦٦) مَنْ يُنكر أن المسيح قد أخذ نفسًا، رغم أن المسيح ذاته قال: "**وأنا أضع نفسي عن الخراف**"، وقال أيضًا "**لهذا يحبني الآب، لأني أضع نفسي لآخذها أيضًا**" (يو ١٠: ١٧،١٥). لم يقل المسيح هذا على سبيل المثال ولا بمعنى رمزي حيث يُقال شيء ويُفهَم شيء آخر، كما وَرَدَ في الكتاب المقدس: "**في رأس الشهر والسبت نفسي لا تطيق**" (إش١: ١٣) فهنا ربما تشير كلمة "**نفسي**" إلى نفس المسيح، التي اقتناها لأجل هذا الغرض، كي يمحو إثم الخرافات اليهوديَّة ويؤسس الذبيحة الواحدة الحقيقة.

(٦٧) قد يشكُّون في تفسير النبوة التي سبق وذكرتها، لكنهم لن يتمكنوا من دحض قول الإنجيل بخصوص طبيعة النفس التي أخذها المسيح. فبعدما ذَكَرَ الرب موته وقيامته، أضاف:

"**ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي. لي سُلطان أن أضعها ولي سلطان أن آخذها أيضًا**" (يو١٠: ١٨). هو يضع وبنفس الطريقة يأخذ. يقول "**آخذها**"، لأن **كلمة** الرب لم يُقِم جسده دون أن يكون له نفس بشرية، ولكن كما أخذ جسدنا فهو أيضًا أخذ نفسًا بشرية كاملة كالتي لدينا عندما قَبِلَ أن يأخذ الطبيعة البشريَّة. أقول: أخذ نفسنا حتى يباركها بسر تجسُّده، أخذ طباع وميول عقلنا حتى يُصحِّحها.

نفس المسيح ضرورية للخلاص

(٦٨) وما المنفعة لو أخذ المسيح جسدًا بلا نفسٍ عاقلة، إذ أن الجسد في ذاته، والنفس غير العاقلة ليسا مسؤولين عن فعل الخطيئة، كما أنهما لا يستحقان المكافأة؟ لهذا السبب أخذ المسيح النفس البشرية العاقلة التي تشكل داخلي خطرًا كبيرًا[٤٦].

بالإضافة إلى ذلك، ماذا كنت سأنتفع شخصيًا، لو لم يفتديني المسيح بالكليَّة؟! ولكن الذي قال لليهود: "**أفتسخطون عليَّ لأني شفيت إنسانًا كله في السبت**" (يو٧: ٢٣)، قد افتداني بالكليَّة. وأكبر دليل على ذلك، أن الإنسان المؤمن حين يقوم من بين الأموات، سيقوم كاملاً، فلن يقوم منه جزء ولا يقوم الجزء الآخر.

---

[٤٦] لأن النفس العاقلة – كما سبق وقال – مسؤولة عن فعل الخطية.

النفس البشرية كانت خاضعة للكلمة

(٦٩) ليتوقف هؤلاء الجُهالّ عن الخوف من عدم قدرة المسيح على توجيه وقيادة جسده أو نفسه العاقلة أو مشاعره الإنسانيَّة، ذاك الذي جلس على ابن أتان لم يجلس أحد عليه من قبل[٤٧]. يقول داود: "**الغارس الأذن ألا يسمع**" (مز٩٤: ٩). ألم يكن، الذي حكَمَ آخرين، قادرًا على التَّحكُّم في نفسه؟ هل الذي يغفر الخطايا هو نفسه يُخطئ؟

ليتوقفوا أيضًا عن الخوف من أن تكون شهوة الجسد قد تغلَّبت فيه على ناموس الذهن، فهذه الشهوة التي لم تَغلِب في بولس ولكنها كانت تحارب فقط[٤٨]. فجندي المسيح (بولس) قد أعلن انتصار ذهنه على الشهوة. فهل يخاف هؤلاء خشية أن ينتصر الجسد على الرب، نفس الجسد الذي غُلِب في العبد (بولس) ؟[٤٩]

---

[٤٧] السيد المسيح قد قاد بسهولة الآتان الذي لم يركبه أحد (مت٢١: ٥) وقد أطاع الأتان رب المجد دون أن يعانده، لأنه من المعروف أي دابة تحتاج إلى تدريب قبل أن يركب عليها أحد، وقد استخدم أمبروسيوس هذا الأمر كدليل على أن الرب كان يقود جسده الخاص بسهولة كاملة كما كان يقود الآتان.

[٤٨] انظر رو٧: ٢٥.

[٤٩] يقصد القديس هنا، أن جسد السيد المسيح كان خاضعًا تمامًا له، فإذا كان بولس قد انتصر على شهوات الجسد كما أعلن في رسائله، أفلا يكون هذا الأمر سهلاً بالأولى لرب المجد أيضًا.

(٧٠) إن المسيح لا يشاء أن نخاف لأجله؛ إذ أنه لا يشتهي أن ننوح عليه. ولهذا قال: "**يا بنات أورشليم، لا تبكين عليَّ بل أبكين على أنفسكن**" (لو٢٣: ٢٨). وكأنه يقول لهؤلاء: "**لا تخافوا عليَّ، بل خافوا على أنفسكم**". وهل لم تسمعوا قول داود: "**الرب نوري وخلاصي، مِمَّنْ أخاف؟ الربَّ حصن حياتي، مِمَّنْ أخاف؟**" (مز٢٧: ١) الذي في موضع آخر يقول: "**فلا أخاف. ماذا يصنعه بي البشر**" (مز٥٦: ٤).

(٧١) وكأن المسيح يُعلِّق قائلاً: "هل أخشى من ضعف الطبيعة البشرية، هل أخشى ما لم يخفه الإنسان نفسه؟ فأنا إله من قبل أن أتجسَّد، وبعدما تجسَّدت بقيت إلهًا أيضًا. ولأني قد أخذت ناسوتًا كاملاً، فقد أخذت ذهن بشري أيضًا، دون أن أسقط بسبب هذا الذهن البشري. كإنسانٍ قُلت إن نفسي قد اضطربت، كإنسانٍ جُعت، كإنسانٍ تضرَّعت، بينما أنا هو القابل لتضرعات البشر، كإنسانٍ كنت أُنمو كما هو مكتوب: "**وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة، عند الله والناس**" (لو٢: ٥٢)".

وكان ينمو في القامة

(٧٢) وهنا نسأل، كيف كانت تنمو حكمة الله؟ سنجد الإجابة في ترتيب الآية ذاتها؛ لقد نما أولاً في القامة، ثم في الحكمة. فالمقصود هنا إذن الحكمة البشريَّة وليس الحكمة الإلهيَّة، لذلك

وَضَعَ الإنجيلي "**القامة**" أولاً، حتى نؤمن أن هذا قيل بحسب كونه إنسانًا، لأن نمو القامة لا ينتمي إلى الطبيعة الإلهيَّة بل يخص الجسد. وبما أن المسيح كان ينمو في القامة، فسينمو في الحكمة البشريَّة أيضًا، والحكمة البشرية تنمو بحسب أفكار الذهن إذ أنها تنتمي إليها. فما هي أفكار الذهن التي نَمت وتطوَّرت؟ إن اعتبرناها أفكار الذهن البشريَّة، فتلك قد أخذها المسيح حين تجسَّد، وإن اعتبرناها أفكار اللاهوت، فسنجعل اللاهوت بذلك خاضعًا للتغيُّر والنمو. فلأي سبب يأتي النمو، أليس لكي يحدث تغيير للأفضل لمن ينمو، ولكن ما يخص اللاهوت لا يتغيَّر، وما يتغيَّر لا يخص اللاهوت بالتأكيد. وبما أن أفكار الذهن البشري هي التي تنمو، لذلك أخذ المسيح ذهنًا بشريًا.

(٧٣) يجب أن نعرف أن لوقا الإنجيلي حين كتب ذلك، كان يتحدَّث عنه كإنسانٍ، وكانت تلك الآية تمهيد لذلك: "**وكان الصبي ينمو ويتقوَّى بالروح ممتلئًا حكمة وكانت نعمة الله عليه**" (لو٢: ٤٠). كلمة "**صبي**" هي من مراحل العمر الخاصة بنا نحن البشر. فلم تكن قدرة الله هي التي تتقوَّى، ولا الله هو الذي ينمو ولا كانت حكمة الله أو إلوهيَّته هما اللذين امتلئا. فالذي امتلأ لم يكن حكمة الله بل نحن. فكيف يمتلئ الذي نزل لكي يملأ الكل؟[٥٠]

[٥٠] انظر أف٤: ١٠.

(٧٤) هل تعلم بأي منطق قال إشعياء إن الصبي لا يعرف أبيه أو أمه؟ لأنه مكتوب: "**لأنه قبل أن يعرف الصبي أن يدعو: يا أبي ويا أُمي، تُحمل ثروة دمشق وغنيمة السامرة قدام ملك أشور**" (إش٨: ٤). نحن نعلم أن الأمور المستقبليَّة وغير المعلومة لا يمكن أن تختفي من حكمة الله؛ ولكن الطفولة البشرية هي التي لا تعرف ذلك، لسبب جهل الطبيعة البشرية التي لا يمكنها معرفة شيء ما لم تتعلَّمه أولاً.

كمال الناسوت لا يعني تقسيم المسيح

(٧٥) أنت تقول لي: "هذا الأمر مخيف، لأنك إذا نسبت نوعان من الأفكار للمسيح أو حتى حكمتان مختلفتان، فأنت بذلك تقسِّم المسيح". وأنا أقول لك: هل نحن نُقسِّم المسيح، عندما نعبد كلاً من إلوهيَّته وجسده؟ .. حقًا قال الرسول: "**لأنه وإن كان قد صُلِبَ من ضعف لكنه حيٌّ بقوة الله**" (٢كو١٣: ٤)، معلنًا أن المسيح لم يُقسَّم على الإطلاق. ومرة أخرى أكرر، هل نُحسب كمقسِّمين للمسيح لأننا نقول إنه أخذ نفسًا عاقلة قادرة أيضًا على فهمنا؟[٥١].

(٧٦) لأن الله **الكلمة** نفسه حينما تجسد، لم يحل محل النفس العاقلة القادرة على الفهم، ولكن الله **الكلمة** أخذ نفسًا بشرية عاقلة وقادرة على الفهم لها نفس طبيعة أنفسنا، وجسدًا مثل

---

[٥١] انظر ١كو٢: ١٣.

أجسادنا،له نفس طبيعة أجسادنا، وبهذا صار إنسانًا كاملاً بلا أي شائبة خطيئة، لأنه لم يرتكب أية خطيئة، لكنه صار خطيئة لأجلنا "**لنصير نحن بر الله فيه**" (٢كو٥: ٢١). فهو بذلك له جسد ونفس مماثلة تمامًا لنفوسنا وأجسادنا.

(٧٧) وأنا لا أخاف من اتهامهم لي بأني أُحَوِّل الثالوث إلى رابوع[٥٢]. فنحن نعبد حقًا ثالوثًا واحدًا، أنا لا أقسِّم المسيح عندما أُميِّز بين جوهر جسده وجوهر إلوهيَّته، ولكني أُعلن مسيحًا واحدًا مع الآب وروح الله، وسوف أبرهن لكم أن أولئك القائلين بأن جسد المسيح من جوهر واحد مع إلوهيَّته هم الذين يزيدون أقنومًا رابعًا. لأن الأشياء التي لها نفس الجوهر، ليست شخصًا واحدًا، ولكن بالتأكيد هي من نوع واحدًا، والآباء في مجمع نيقية الذين اعترفوا بأن الابن من نفس الجوهر الواحد الذي للآب، لم يؤمنوا بأقنومٍ واحدٍ بل بإلوهيَّةٍ واحدةٍ للآب وللابن.

(٧٨) ولهذا، حينما يقولون إن جسده كان من نفس جوهر ابن الله، نجدهم يصطدمون بالسخافات التي يتهموننا بها، أعني ادعاء تقسيم المسيح. وعلى الرغم من أن إلوهيَّة الثالوث هي وحدها غير مخلوقة، هم يقدِّمون لنا كائنًا رابعًا غير مخلوق كي نعبده.

---

[٥٢] كان أتباع أبوليناريوس يعترضون قائلين، بأن الذي لا يؤمن بأن الناسوت تحول إلى لاهوت، يعتبر كأنه يضيف أقنومًا جديدًا على الثالوث، قاصدين الناسوت.

الفصل الثامن

طبيعة الله

(٧٩) لقد أنهيت هذا العمل[٥٣]، وكان بالنسبة لي مسألة ضمير، لكي لا أبدو أني جادلت فيما لا أستطيع شرحه.

هناك أشخاص ادعوا سماعهم لنا نقول: إن ابن الله، لأنه مولود، لا يستطيع أن يكون مساويًا للآب الذي ولده، متناسيين حقيقة أن الابن مولود والآب نفسه هو الذي وَلَدَه، لأن الولادة ليست مسألة قدرة ولكنها طبيعة، وقد ظنوا أني كنت صامتًا قبل ذاك السؤال، ولكن مع هذا الالتواء في المناقشة، فإنهم يغيِّرون طريقة حديثهم، حتى يظن الشعب أن تَغيُّر أسئلتهم يعني تَغيُّر أفكارهم، وقد سألونا قائلين: "كيف يكون غير المولود والمولود من طبيعة واحدة ومن جوهر واحد؟".

(٨٠) لذلك، يا جلالة الإمبراطور الودود، كي أرد على الأسئلة التي قدمتها لي، فأول كل شيء، أنا لا أجد في أي موضع بالكتاب المقدس كلمة "غير مولود"، لم أقرأها ولم أسمعها. يا لتغيُّر مواقف هؤلاء الرجال، لأنهم سابقًا اتهمونا باستخدام تعبيرات غير مكتوبة في الكتب المقدسة، وعندما

---

[٥٣] من هذه النقطة حتى النهاية هو ملحقًا خاصًا أضافه القديس أمبروسيوس ردًا على اعتراض بلاديوس أسقف راتيريا، بعد انتهاء مجمع أكويلا. ولقد نقل الإمبراطور جراتيان هذا الاعتراض للقديس أمبروسيوس.

نعرض لهم ما هو مكتوب، يرمــون إلينــا بغيــر المكتــوب. أيناقضون أنفسهم ويجردون ادعائهم من المصداقيَّة؟.

(٨١) يقولون: غير مكتوب في الكتاب المقدس إنــه يوجــد جوهر أو طبيعة لله، رغم أن الكتاب المقدس يؤكـد بــالطبع أن الابن هو بهاء مجد الله الآب ورسم جوهره[٥٤]، ونحن قد أوضحنا بالكليَّة في عمل آخر[٥٥] أن كثيرين قد تكلَّموا عن الجوهر الإلهي.

(٨٢) مَنْ سوف يُنكر طبيعته الإلهيَّة، بينما كَتَــبَ بطــرس الرسول في رسالته شارحًا كيف أنه بآلام الصليب قــد تمـت رحمة الرب حتى جعلنا شركاء طبيعته الإلهيَّة؟ وفــي موضــع آخر كتب بولس الرسول: "**إذ كنتم لا تعرفــون الله، اســتُعبدتم للذين ليسوا بالطبيعة آلهة**" (غلا٤: ٨).

(٨٣) ماذا يفعل أولئك الذين ينكرون وجود طبيعة إلهيَّــة، ليس فقط للابن، بل وللآب أيضًا؟ إن أنكروا أنه إله بالطبيعــة، فسيكون بالتالي إلهًا بالنعمة مثل جميــع البشــر، وسيتســاوى إيمانهم بالوثنيين الذين يعبدون التماثيل التــي تحمــل صــور الشياطين ويدَّعون بأن تلك الصور آلهة.

ولكن لنتبع نحن تسليم الرسل، ونقول إن صور الأصنام ليس لها طبيعة إلهيَّة. وبما أن الصور لا تمتلك طبيعة إلهيَّة،

[٥٤] انظر عب١: ٣.

[٥٥] في الإيمان المسيحي٣: ٤.

بالتالي فالشياطين أصحاب هذه الصور ليس لهم طبيعة إلهيَّة، لأن الطبيعة الإلهيَّة والجوهر الإلهي يوجدا في الله وحده.

(٨٤) ... ليتهم يقبلون الآن أن طبيعة الله الآب هي نفسها التي للابن وأيضًا هي التي للروح القدس، حتى لا يقولوا، على سبيل المثال: "نحن قد قرأنا بالفعل أنه يوجد طبيعة إلهيَّة، غير أننا لم نقرأ عن وحدة الطبيعة الإلهيَّة". ولكـــن عندما قال الابن نفسه: "**أنا والآب واحد**" (يو١٠: ٣)، فإنه بذلك أثبت وحدة الإلوهيَّة، وعندما قال: "**كل ما للآب هو لي**" وأيضًا "**كل ما هو لي فهو لك**" (يو١٦: ١٥، ١٧: ١٠) فهو بذلك قد أكَّد هذه الوحدة أيضًا. وعندما قال: "**الآب الحالّ فيَّ هو يعمل الأعمال التي أعملها**" (يو١٤: ١٠) فقد صرَّح بأكثر وضوحًا بالوحدة التي بينه وبين الآب.

شركاء الطبيعة الإلهية

(٨٥) وقد بيَّن بطرس الرسول أن هذه الطبيعة الواحدة هي طبيعة إلهيَّة حين قال: "شركاء الطبيعة الإلهيَّة" (٢بط١: ٤). لأن بطرس لو لم يكن يؤمن بوحدة الطبيعة الإلهيَّة، لقال مثلاً: "لقد جعلنا شركاء الطبائع الإلهيَّة". ونحن نعلم أننا من خلال الابن نصل إلى شركة الطبيعة الإلهيَّة. فهل يمكن للمسيح أن يمنحنا شيئًا لم يكن يمتلكه؟ فلا يوجد شك في أن الابن لا يمكن

أن يمنح إلا ما يمتلكه، وبما أنه يمتلك الطبيعة الإلهيَّة، فقد وهبنا شركة الطبيعة الإلهيَّة.

(٨٦) والرسول بولس أيضًا قال: "**الذين ليسوا بالطبيعة آلهة**". فقوله هذا يوضح أن طبيعة الإله الحق هي واحدة. فما كان قد قال: " **ليسوا بالطبيعة آلهة**"، لو كان قد عَرَفَ أنه يوجد تعدُّد في الطبيعة الإلهيَّة، أي تكون هناك طبيعة للآب، وأخرى للابن وثالثة للروح القدس. إذن، بقوله: "**الذين ليسوا بالطبيعة آلهة**" قد عبَّر عن وحدة الطبيعة الإلهيَّة.

(٨٧) وأكثر من ذلك نقول، لا يمكن أن يكون هناك إلهًا بالطبيعة، ما لم يكن أولاً إلهًا حقيقيًا؟ وكما قال بولس إلى أهل تسالونيكي: "**كيف رجعتم إلى الله من الأوثان، لتعبدوا الله الحيِّ الحقيقيِّ؟**" (اتس ١: ٩). لأنهم كانوا يدَّعون أن الأوثان هي آلهة، ولكن الله هو إله حي وإله حقيقي بحسب الطبيعة. ومن خلال خبرتنا العادية، نرى وجود أبناء حقيقيين، وأبناء بالتبني. ونحن لا نقول إن الابن الذي بالتبني هو ابنًا بالطبيعة، ولكننا نقول إن الابن بالطبيعة هو ابن خاص حقيقي.

(٨٨) وهكذا، قد أثبتنا بواسطة الكتاب المقدس أن كلاً من الطبيعة والجوهر هما إلهيين وأن الرسل أوضحوا أن الوحدة وليس التعدد هي التي تُنسب للطبيعة الإلهيَّة....

الفصل العاشر

وحدة الجوهر بين الآب والابن

(١٠٦) ولكن يوجد آخرون يقولون: إن الابن مساوٍ للآب ولكنه ليس من جوهر واحد معه، فلنناقش الآن سخافات هؤلاء القائلين بذلك أيضًا.

(١٠٧) الأشياء التي ليست من طبيعة واحدة، هي بالتأكيد من طبائع مختلفة ومتمايزة، وتلك الأشياء التي من طبائع متمايزة لا يمكنها نهائيًا أن تكون مماثلة؛ فعلى أقصى تقدير قد نجد بعض التشابه بينها في المظهر الخارجي فقط. فمثلاً: نجد أن اللَّبن والثلج وطائر الإوز لهما نفس اللون الأبيض، ولكن يحتفظ كل كائن منهم بطبيعته المميِّزة له. هكذا فاختلاف الطبائع لا يتأثر بتشابه المظهر الخارجي.

(١٠٨) كيف يجرؤ هؤلاء الرجال على القول إن الآب والابن متساويان ولكنهم ينكرون وحدة الجوهر؟ أو هل يظنون أن التساوي بين الآب والابن المقصود منه التشابه في التكوين والهيئة واللون؟ عناصر التشابه هذه تُعبِّر عن خصائص ماديَّة؛ كما إنها تُشير إلى نوعٍ من التركيب. فكيف ننسب نحن تشابه اللون أو الشكل إلى مَنْ هو غير المرئي؟ أو كيف يتسنى لمخلوق

ما أن يتشابه مع غير المخلوق؟ كيف يكون المسيح بهاء مجده ورسم جوهره[٥٦]، إذا كان هناك مجد وجوهر مختلفين.

المسيح صورة الله

(١٠٩) يقولون إن الابن مشابه لله في المجد والقدرة، وهكذا قيل عن الابن إنه صورة الله. إن كان الابن يشابه الآب في بعض الأوجه فقط، فالتشابه إذن ليس في كل شيء، بل سيصير الابن يشابه في أجزاء ولا يشابه في أجزاء أخرى. وسيؤدي هذا الافتراض إلى نتيجة خطيرة، فإذا كان الابن يشابه الآب جزئيًّا وليس كليًّا، فإن صورة الله ستصبح مركَّبة جزئيًّا، وهذا سيجعل الآب يبدو مركَّبًا، طالما أن صورته مركَّبة أيضًا. وستصبح صورة الآب المركبة التي تتساوى معه في أجزاء، لا تتساوى معه في أجزاء أخرى.

(١١٠) وأولئك الذين ينكرون أن المسيح مساوٍ للآب في وحدة الطبيعة، يظنون أنه يتشابه معه في نقاط أخرى. لأنهم اعتادوا على القول: لماذا تظنون أن الكتب المقدسة قد أعطت الكثير للابن، لأنها دعته بصورة الله، بينما قال الله نفسه للبشر: "**كونوا قديسين كما أنا قدوس**" (لا١٩: ٢) بينما الابن يقول:

---

[٥٦] انظر عب١: ٣.

"كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل" (مت٥: ٤٨).

القائلين بذلك لا يفهمون أن الابن مساوٍ للآب في الكمال وفي الإلوهية، وليس في أجزاء منهما. فإن كان هناك الكثيرون يشابهون الآب، فلماذا دُعيَّ الابن وحده صورة الله غير المنظور، ودعيَّ أيضًا رسم جوهر الآب؛ ما لم يكن لديه طبيعة واحدة مع الآب، ومجد وحيد لكيلهما؟

تشابه المحاكاة وتشابه الطبيعة

(١١١) يوجد نوعان من التشابه: تشابه بحسب المحاكاة وآخر بحسب الطبيعة. يقول الكتاب المقدس: "**كونوا قديسين**" أي أن الإنسان يمكن أنا يكون قديسًا من خلال المحاكاة. ولذلك قيل للبشر: "**كونوا**" لأنهم ليسوا كذلك، ولكن قيل عن الرب: "**لأني أنا قدوس**" ليس بالطبع بواسطة مجهود قام به بل بحسب طبيعته الدائمة. والحكمة تقول أيضًا: "**كونوا كاملين**" لكي يبدأ البشر في أن يحرزوا ما ليس لديهم. ولكن عن الآب تقول: "**كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل**". لأن الآب الكائن دائمًا هو كامل. لذلك نجد الكلمة اليونانية «οὐσία»، والتي تعني "يكون دائمًا"، أو ترجمتها اللاتينية «Substantia» والتي تعني "موجود دائمًا بدون مساعدة من آخر"، هي ما نقصده حين نتحدث عن جوهر الله الخاص.

(١١٢) لذلك، فكما أن الآب كامل وقدوس، هكذا الابن كامل وقدوس أيضًا، لأنه هو صورة الله. بالإضافة إلى ذلك نقول: بما أننا نشاهد كل ما يخص الآب في الابن الذي هو صورته، مثل: الإلوهيَّة الأبديَّة، كمال القدرة والسلطان. فهذا يعني أننا نشاهد كل ما يخص الله في صورته. هكذا، لهذا السبب عليكم أن تؤمنوا بأن صورة الله مساوية له تمامًا. لأنكم إن كنتم تقلِّلون من الصورة، فإنكم تقلِّلون بالطبع مِنْ صاحب الصورة. وإن كنتم تؤمنون بأن الصورة أقل، فسوف يظهر الله أقل أيضًا في صورته. تقول الصورة: "**مَنْ رآني فقد رأى الآب**" (يو ١٤: ٩). وهكذا، مادام الآب غير مخلوق فالابن غير مخلوق أيضًا، وطالما أن الآب ليس بأقل فالابن أيضًا هكذا، وبما أن الآب هو كليّ القدرة فلابن أيضًا كليّ القدرة...

(١١٤) كيف ينكرون المسيح كلِّي القدرة، وهذا هو المكتوب، لأننا قد علَّمنا مسبقًا[٥٧] أن المسيح هو كلِّي القدرة، وهذا ما أُشير إليه في رؤيا يوحنا الإنجيلي ونبوة زكريا وفي الإنجيل أيضًا. إن كان أحد يظن أنه يجب إعادة النظر في هذه الأمور، ليته يعود ويبحث عن ما قيل آنفًا.

---

[٥٧] في الإيمان المسيحي ٢: ٣-٤.

(١١٥) ومع ذلك، فما قد أغفلته تقريبًا بسبب ضيق وقت القداس، ليتهم يقولون ما يظنون في نبوة عاموس النبي القائلة: "والسيد رب الجنود الذي يمسُّ الأرض فتذوب، وينوح الساكنون فيها، وتطمو كلها كنهرٍ وتنضب كنيل مصر. الذي بنى في السماء علاليهُ وأسس على الأرض قبَّته، الذي يدعو مياه البحر ويصبُّها على وجه الأرض، يهوه اسمه" (عا٩: ٥-٦). ألا يفهمون أن كل الأمور تليق بالابن، الذي نزل ولمس الأرض التي اهتزت من شدة آلامه، والذي صعد من الأرض إلى السماء ونزل إلى الأرض من السماء، كما هو نفسه وَعَدَ؟

(١١٦) ولماذا أجتهد إلى هذا الحد في الحديث عن الابن، في حين أن الكتاب المقدس يشهد أن الروح القدس هو كلِّي القدرة أيضًا؟ مكتوب: "**بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها**" (مز٣٢: ٦س). وقد كُتِبَ عن الحكمة أنها تملك في ذاتها الروح كلِّي القدرة. ففي الحكمة روح الحكمة، الروح القدوس، الروح الواحد، الروح الهادئ، الروح المتحرك بسهولة، الروح البليغ، الروح النقي، الروح الجلي، الروح المنيع، الروح المحب للخير، الروح المدبر، الروح القوي، الروح المعطي بسخاء، الروح المتحنن، الروح الذي لا يتغيَّر، الروح الكامل، الروح الذي بلا هَم، مَنْ يقدر أن يفعل كل هذه الأشياء، ويرى كل شيء ويخترق من خلال الكل أفكار الأرواح العاقلة.

ملحق عن حياة القديس أمبروسيوس وأعماله

حياته

يُعتبر أمبروسيوس وأغسطينوس وإيرونيموس "جيروم" كبار آباء الكنيسة الغربية، ويُعدُّ أمبروسيوس من الناحية الأدبيَّة موازيًا لشيشرون حتى دُعيَّ "**شيشرون المسيحي**"، وقد انتشرت كتاباته انتشارًا واسعًا. لا تختلف حياته عن حياة الكبادوكيين الثلاثة، مِنْ حيث الأصل والتنشئة، فهو ينتمي إلى أسرة رومانية نبيلة.

وُلِدَ أمبروسيوس نحو سنة ٣٤٠ م في تريير Tricr، وكان والده الذي يُدعى أيضًا أمبروسيوس حاكم بلاد الغال. لم ينل المعمودية إلاَّ عند بلوغه ٣٤ عامًا. وبعد وفاة والده رجعت أمه مع إخوته إلى روما، حيث واصل دراسته وراح يتعمَّق في الفلسفة والأدب والبلاغة. ولنبل أسرته وثقافته ترقى بسرعة إلى أن وَصَلَ في سن الثلاثين لحُكم ولاية إميليا بميلانو.

وحدث أن توفى أسقف ميلانو الأريوسي أوكسينوس وشبَّ الخلاف على الخليفة بعده، فتدخَّل الحاكم للحفاظ على أمن الكنيسة فارتفع صوت صبى يقول: "**أمبروسيوس أسقفًا!**"

فصاح كل الشعب: " **أمبروسيوس أسقفًا!**"، ومع إصرار الإمبراطور والشعب تعمَّد ورُسِمَ أسقفًا لميلانو في شهر ديسمبر سنه ٣٧٤ م. وذلك بعد تمنُّع شديد منه، وعدة محاولات للهرب، خُتِمَت كلها بالانصياع للإرادة الإلهيَّة الناطقة بلسان الشعب.

وبدأ المسئوليَّة فأخضَعَ حياته للتقشف والزهد ووزع أمواله كلها ولجأ إلى الخطيب والفيلسوف المسيحي ماريوس فكتورينوس ينهل منه علوم الدين، وأكثَرَ من اطلاعه على الكتب المسيحيَّة. كرَّس أمبروسيوس كل جهوده لدراسة الكتب المقدَّسة وكتابات الآباء الشرقيين أمثال: أثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس، وكذلك الكتَّاب اليهود مثل فيلو والوثنيين مثل أفلوطين. وفي سنة ٣٨٥م طلبت الإمبراطورة يوستينة الأريوسيَّة ببناء كنيسة لصنع عيد الفصح للأريوسيين فرفض أمبروسيوس وظل داخل الكنيسة عدة أيام إلى أن رجع الإمبراطور عن قراره.

اقترب أمبروسيوس من راحته، مع أنه لم يكن قد جاوز السابعة والخمسين، وتوقف عن الكتابة غير أنه استمر في قراءاته وتأملاته. وبينما كان يُملي شرحًا للمزمور الرابع والأربعين إذ به يلتفت إلي الكاتب ويقول: "**إنه لمِنْ المؤلم لأن ننتظر طويلاً طلوع النهار الذي فيه يبلغ الموت من الحياة.**

ولكن ـ لحسن الحظ ـ أن سراج كلمة الله لا يبرح أعيننا... استيقظ يا رب. لماذا تنام؟ لأن أنفسنا منحنيَّة إلى التراب، قُم أعنا ونجنا من أجل رحمتك".

رَقَدَ أمبروسيوس في الرب سنة ٣٩٧م بعد حياة حافلة بالرعاية والجرأة وكان مِنْ مصاف الرجال العظام الذين استطاعوا بعملهم وتفكيرهم أن يقدموا العناصر الجوهريَّة للثقافة المسيحية.

كتاباته

بالرغم مِنْ اهتمامه الشديد بعمله الرعوي والمتاعب التي لاحقته، فقد ترك القديس أمبروسيوس تراثًا ثمينًا. فمن جانب اهتم بتنظيم العبادة الليتورجيَّة العامة في إيبارشيته، فقدم تدبيرًا ليتورجيًا جميلاً يعتز به أهل ميلانو، كما أدخل نوعًا من الموسيقى الكنسية دُعيت بالأمبروسية Ambrosian.

أما كتاباته وعظاته فتنقسم إلى:

١-أعمال تفسيرية:

+ تفسير إنجيل لوقا (١٢ كتاب)   + الأيام الستة   + في قايين وهابيل

+ في نوح

+ في الفردوس

+ في إسحق والنفس

+ في نابوت اليزراعيلي

+ في يوسف

+ في إيليا والصوم

+ في يعقوب والحياة الطوباوية

+ في طوبيا

+ دفاع النبي داود

+ مناداة أيوب وداود

+ تفسير ١٢ مزموراً

٢-أعمال نسكيَّة:

+ في واجبات الكهنة

+ في البتوليَّة

+ حث على البتوليَّة

+ في العذارى

+ مؤسسة العذارى

+ في الأرامل

٣-الأعمال العقائديَّة:

+ في الإيمان

+ في الأسرار

+ في التوبة

+ سر تجسُّد ربنا

٤-الأناشيد:

يُعَدُّ أمبروسيوس أبَ الترنيم الكنسي اللاتيني، وأناشيده تحتل قسمًا مهمًا في صلوات السواعي التي اعتمدتها الكنيسة اللاتينية.

٥- الخُطَب والرسائل:

+ تأبينان لأخيه ساتيروس   + تأبين للإمبراطور ثيؤدوسيوس

+ تأبين للإمبراطور فالانتينوس الثاني   + ٩١ رسالة

++++++++++++++++++